
المكتبة القبطية على الانترنت
زيارة الموقع

دراسة روحية عن

الشهادة والشهداء

الأب متى المسكين





أول الشهداء إسطفانوس رئيس الشمامسة
عن أيقونات دير الشهداء بإسنا (من أديرة أنبا باخوميوس)

(٣١)

الثمن ١٧٥ قرشاً

ديـر القديس أنبـا مقـار
بريـة شيهيت

دراســـة روحـــية عن

الشهـــادة والشهـــداء

الأب متى المسكين

كتاب : دراسة روحية عن الشهادة والشهداء .
المؤلف : الأب متى المسكين
الطبعة الأولى : صدرت الثلاث المقالات الأولى سنة ١٩٧٤ .
صدرت المقالة الرابعة سنة ١٩٧٥ .
الطبعة الثانية : سبتمبر ١٩٨٠ (المقالات كلها معاً) .
الطبعة الثالثة : سبتمبر ١٩٨٧ .
مطبعة دير القديس أنبا مقار — وادي النطرون . ص . ب . ٢٧٨٠ القاهرة
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٨٧/٢٢٧٢ .
الترقيم الدولي : ٣ — ٠٦٤ — ٤٤٨ — ٩٧٧

المحتوى

Ⲭⲉⲣⲉ ⲡⲉⲕⲙ̀ϩⲁⲩ ⲉⲑⲙⲉϩ
ⲛ̀ⲭⲁⲣⲓⲥⲙⲁ : ⲭⲉⲣⲉ ⲡⲉⲕⲥⲱⲙⲁ
ⲉ̅ⲑ̅ⲩ̅ ⲫⲏⲉⲧⲁϥⲃⲉⲃⲓ ⲛⲁⲛ ⲉ̀ⲃⲟⲗ
ⲛ̀ϧⲏⲧϥ ⲛ̀ϫⲉ ⲟⲩⲧⲁⲗϭⲟ
ⲛ̀ϣⲱⲛⲓ ⲛⲓⲃⲉⲛ .

Ⲙⲁϯϩⲟ ⲉ̀Ⲡ̅ⲭ̅ⲥ̅
Ⲉⲙⲙⲁⲛⲟⲩⲏⲗ ϩⲓⲛⲁ ⲛ̀ⲧⲉϥⲭⲁ
ⲛⲉⲛⲛⲟⲃⲓ ⲛⲁⲛ ⲉ̀ⲃⲟⲗ .

السلام لقبرك الممتلىء
نعمة، السلام لجسدك
المقدس الذي نبع
عنه شفاء لكل
الأمراض.

اسأل المسيح
عمانوئيل لكي يغفر
لنا خطايانا.

« أم لستم تعلمون أن جسدكم هو هيكل للروح القدس الذي فيكم الذي لكم من الله وأنكم لستم لأنفسكم . لأنكم قد اشتُريتم بثمنٍ . فمجّدوا الله في أجسادكم وفي أرواحكم التي هي لله . »

(١ كو ٦ : ١٩ ، ٢٠)

ـ ١ ـ

عيد الشهداء

كلمة ألقيت بكنيسة التسعة والأربعين شهيداً شيوخ شيهيت القديسين في يوم عيدهم وتذكارهم الموافق الأحد ٢٦ طوبة ١٦٩٠ ـ ٣ فبراير ١٩٧٤ ـ بدير القديس أنبا مقار الكبير ببرية شيهيت.

عيد الشهداء

□□□

« كن أميناً إلى الموت فسأعطيك إكليل الحياة. » (رؤ٢: ١٠)
« ومن يغلب فلا يؤذيه الموت الثاني. » (رؤ٢: ١١)

الإستشهاد بسفك الدم هو في الحقيقة سِرٌّ من أسرار الكنيسة يعادل سر المعمودية تماماً، وينوب عنه. فالموعوظ إذا استشهد بسفك الدم قبل أن يتعمَّد، يُحسب له الإستشهاد عماداً(١)!! وذلك على أساس صبغة المسيح: «لي صبغة أصطبغها وكيف أنحصر حتى تُكمل» (لو١٢: ٥٠). حيث هنا كلمة «صبغة» تفيد سفك الدم، وهي باليونانية Βάπτισμα (بابتزما) التي تُرجمت «معمودية».

والشهادة للمسيح بالفم، أي بالكرازة، شيء، والشهادة للمسيح بالدم شيء آخر. هذه كرازة بالحياة، وهذه كرازة بالموت.

أما الأولى، أي الشهادة بالفم، فهي مصارعة مع الناس، مع اللحم والدم، لإخضاع الجسد العتيق مع أفكاره وتصوراته لطاعة المسيح، فهي امتداد لعمل المسيح وخدمته وتعاليمه. فيها عناء، وفيها مشقة، وفيها عَنَتٌ واضطهاد وآلام محدودة.

وأما الثانية، أي الشهادة بالدم، فهي مصارعة ليست مع الناس في الحقيقة، أي ليست مع لحم ودم، بل مع أعوان الشر، مع الشيطان نفسه وكل جنوده الذين لهم سلطان أن يقتلوا الجسد، فهي امتداد فعليّ للصليب حيث يبلغ الإقتداء بالمسيح غايته

(1) Tertul., De Bapt. C. 16.

ونهايته! وفي ذلك يقول القديس إغناطيوس الشهيد: [وإني واثق بصلواتكم أني أتمكن من محاربة الوحوش في روما حتى يتأتى لي بالإستشهاد أن أصير تلميذاً «للذي قدم نفسه ذبيحة وقرباناً لله من أجلنا» (أف ٥: ١٢)] ـ (أفسس ١)

لأن الشهادة للمسيح بسفك الدم هي تجديدٌ حيٌّ للصليب، حيث يكون المسيح موجوداً في قلب الشهيد، وفكره وروحه، يسنده إلى آخر نفس، ممدّداً جسده على جسده وواضعاً جروحه على جروحه!

وهذه الحقيقة يكشفها لنا الشهيد إغناطيوس، كخبير في هذا الأمر، هكذا: [إني مستعد أن أجوز هذه الآلام كلها لكي أكون شريك المسيح فيها، الذي تأنس وصار إنساناً كاملاً، الذي هو في داخلي يقويني ويشددني] ـ (سميرنا ٤)، وحيث يكون الروح القدس هو المتكلم والمعطي قوة لتجاوز حدة الألم، إلى أن تشرق على النفس حلاوة الخروج، فتطّلع العين على رؤيا العالم الآخر البهيج.

وهنا سر جرأة الشهيد التي يستمدها من المسيح القائم فيه كغالبِ العالمَ والموت.

وهنا أيضاً سر فرحة الشهيد وابتسامته بسبب تجاوزه للألم والتعذيب بفعل الروح القدس المهدّىء للنفس والمعطي السلام للروح.

وهكذا يجوز الشهيد كل أصناف العذابات بلا أي شكوى أو اعتراض، لأنه في ذلك الوقت يجوز في الحقيقة اختبار غلبة الموت وإشراقة الخلود.

ومع كل ألم وتعذيب، يذوق جنباً إلى جنب مجد المسيح عياناً برؤيا منظورة ومحسوسة.

وفي وسط صخب الإضطهاد والعنف والأعمال الوحشية، تنفتح الأذن على سماع أصوات تشجيع سماوية من ملائكة وقديسين وأرواح شهداء سابقين، والمسيح نفسه.

وهكذا، وبهذه التعزيات والتشجيعات الداخلية والخارجية، تصبح عملية التعذيب والقتل مع كل آلامها بمثابة وسيلة مجيدة نادرة للإنتقال من مجال الأرض والعالم والجسد وشرور الشيطان، إلى مجال السماء وهدوئها وتهليلها الأبدي. وكأنما لا يمكن لأحد أن ينال مجد الشهادة إلا بما يناسبه من آلام!!

وكل الذين عاينوا موت الشهداء عن قرب، رأوا بأعينهم وسمعوا بآذانهم وشمّوا بأنوفهم انفتاح العالم الآخر لإستقبال أرواح الشهداء. واطلعوا على جماله الأخّاذ وأصواته الملائكية ورائحته المذهلة للحواس، إنما بقدر محدود كلٌّ على قدر انفتاحه.

وقد شهد كثيرون أن رائحة دم الشهداء عطرية جداً تفوق في عظمتها كل عطور الأرض. أما الذين كانوا يستشهدون بحرق أجسادهم فكانت رائحتهم المحترقة عبقة أجل من رائحة البخور.

هذا كله يفيد، بكل تأكيد، أنهم رحلوا تواً إلى الأمجاد العليا.

تطويب الشهداء:

تطويب الشهداء أمر إلهي مقطوع به وأكيد، وشهادتهم فرحة عظمى ومجد إلهي.

+ فالشهيد مطوَّب بحسب قول الرب: «**طوبى لكم إذا عيروكم وطردوكم وقالوا** عليكم كل كلمة شريرة من أجلي كاذبين. **إفرحوا وتهللوا.**» (متى٥: ١١و١٢)

أما السر في تطويب الشهداء، فلأنهم يمجدون الله بموتهم، كما يقول الإنجيل بخصوص استشهاد القديس بطرس الرسول: «مشيراً بذلك إلى أية ميتة كان مزمعاً أن **يمجد الله بها**» (يو٢١: ١٩). وفي هذا يقول القديس إغناطيوس الشهيد: [أنا ذاهب إلى روما مقيداً كآخر المؤمنين، ولكني حُسبت بهذا مختاراً لكي أعلن مجد الله.] (أفسس ٢١)

و يضع هرماس (وهو من الآباء الرسوليين) في سفره التقَويّ (الراعي)، درجة

الإستشهاد مع الصوم الدائم والبتولية كأعمال تفوق الوصايا، حيث يكون جزاؤها فائقاً على الجزاء المتحصل من تأدية جميع الوصايا!! فهو صاحب هذا المبدأ: [وسوف أطلعك على وصايا الله، فإذا عملت شيئاً صالحاً أكثر من وصايا الله فسوف تقتني لنفسك مجداً أكثر وتكون مع الله في دالة أوفر.](٢)

+ ولكن ليس معنى هذا أن الشهيد أو الإستشهاد درجة عليا من الإيمان، ولكن الشهيد إنسان يعلن إيمانه إعلاناً كلياً ونهائياً على أساس الآية: «لي الحياة هي المسيح والموت هو ربح» (في ١: ٢١)، كاشفاً بذلك أنه يحيا فعلاً بالإيمان، يحيا بالمسيح لا على مستوى الكلام بل على مستوى أصدق برهاناً وهو إستعداد الموت، باعتبار أن الموت هو باب الحياة الأبدية والخلود مع المسيح، بحيث أن أي إنسان لا يكون لديه الإستعداد للآلام والموت مع المسيح أو من أجله، فهذا لا يُحسب له إيمانه أنه كامل، ولا يؤهله مثل هذا الإيمان إلى الحياة الأبدية أو الخلود.

وفي ذلك يقول إغناطيوس الشهيد في رسالته إلى ماغنيسيا: [فإذا لم نكن على استعداد أن نموت لآلامه، فحياته ليست فينا.] (فصل ٥)

كذلك يقول كلمنضس الإسكندري: [إن الإعتراف (الشهادة) هي بإمكان الجميع، ولكن تحقيق ذلك بالآلام هو نعمة لم تُعطَ إلا للقليلين.](٣)

ولذلك، فليكن نصب أعيننا أنه كما أن موت المسيح هو هو الذي يعطينا الحياة الأبدية، كذلك فإن استعدادنا للشركة في هذا الموت هو هو الضمان الوحيد لحياتنا الأبدية معه.

ولذلك اعتبر القديسون والأتقياء منذ أول العصور أن مجرد التألم مع المسيح أو من أجله هو أعظم عطية يمكن أن ينالها الإنسان على الأرض، فها هوذا الشهيد إغناطيوس

(2) Sim., 5, 3, 3.
(3) Strom., IV, 9.

وهو في طريقه إلى الشهادة يؤكد عدم استحقاقه لمجد التألم من أجل المسيح: [إن الذين يمتدحونني هم في الحقيقة بمثابة الذين يجلدونني، أما شهوتي الوحيدة فهي أن أتألم، ولكن لست أدري هل أنا مستحق لذلك! وهذه الشهوة وإن كانت لا تُستعلن للجميع، ولكنها تكتسحني بعنف شديد. لذلك ما أحوجني إلى الإتضاع حتى ينهزم رئيس العالم و يتلاشى (من أمامي).] (الرسالة إلى تراليا ــ فصل ٤)

أما الشهيد بوليكاربوس فيكشف لنا قبيل استشهاده بلحظات عن مجد الإستشهاد ومعناه، بإحساسه الصادق الرؤيوي، هكذا:

[أيها الرب الإله القادر على كل شيء! ...
أباركك، لأنك رأيت أن تنعم عليَّ في هذا اليوم، وفي هذه الساعة أن أشارك ــ مع عداد شهدائك ــ **في كأس مسيحك** وأعبر إلى الحياة الأبدية!]
(الرسالة إلى سميرنا ــ فصل ١٤)

هكذا يأتي أوريجانس فيجد وراءه ذخيرة حية من صور الإستشهاد الرائعة والأمينة لرسل و بطاركة وأساقفة وأطهر القديسين، فيكتب كتابه المشهور سنة ٢٣٥م عن «الحث على الإستشهاد» يستودعه كل أحاسيسه التي ملأت قلبه منذ فجر حياته عندما رأى والده يستشهد أمامه، وكان هو أكثر من شجعه على ذلك.

وفي كتابه يقول: [إن الإيمان يُختبر في هذه اللحظات فيوجد أميناً. إن الإستشهاد واجب لكل مسيحي، لأن كل الذين يحبون الله هم بالضرورة مستعدون ليتّحدوا به] (فصل ١و٢و٣و٤). [وإن الذين يعترفون الإعتراف الحسن بشجاعة هم المؤهلون للدخول إلى الأبدية السعيدة] (فصل ٥). [وماذا يكون عكس الإستشهاد أو عدم الإستعداد له إلا إنكار الإيمان وعبادة الأوثان والوقوع في الخطية العظمى] (فصل ٦). [لأن من يعترف بالأوثان هو شريك معها وفي عقوبتها بعد الموت.] (فصل ١٠)

[إن الذين يخلصون حقاً، هم الذين يحملون على أنفسهم الصليب مع المسيح.]

(فصل ١٢و١٣)، [أما الجزاء فهو أعظم من كل ما يتركه الإنسان وراءه على الأرض.] (فصل ١٤—١٦)، [فإذا كنا قد جحدنا آلهة الأوثان والشيطان، كيف نحنث في ذلك مرة أخرى؟] (فصل ١٧). [وإن سلوك الشهيد في ساعاته الأخيرة يصير على مستوى ملاحظة وترقب العالم كله.] (فصل ١٨). [إذن، علينا ألا نتهيب الإستشهاد لئلا نصير مع الملائكة الساقطين.] (فصل ١٩—٢١)

[فلنضع أمامنا السبع الشهداء المكابيين وأمهم] (فصل ٢٣—٢٧). [عالمين أن خطايانا التي اقترفناها بعد المعمودية يرفعها استشهادنا بالدم، فهي معمودية الدم الثانية] (فصل ٣٠). [أما إذا أنكرنا المسيح على الأرض، فهو سينكرنا حتماً في السماء] (فصل ٣٤—٣٥). [أما الذين يعترفون به علناً، فإنه يأخذهم معه في الفردوس توًّا] (فصل ٣٦)، [لأن الذين يبغضون هذا العالم، هم فقط الذين يؤهّلون لميراث ملكوت السموات.] (فصل ٣٧و٣٩)، [بل و يورِّثون أولادهم الذين يتركونهم، البركة على الأرض.] (فصل ٣٨)

[والذي ينكر الإبن ينكر الآب.] (فصل ٤٠). [أما الذي يتبع المسيح و يسلم حياته بيد الله، فمن يده يأخذها مع عزاء أبدي.] (فصل ٤١—٤٢). [عالمين أن الذين يستشهدون، يجوزون إلى العلا بأنفسهم و يتسببون في فداء آخرين.] (فصل ٥٠)(٤)

أما الدسقولية (أي تعاليم الرسل — النسخة السريانية) فتعطي إلهاماً خاصاً للمؤمنين بالنسبة للإستشهاد بقولها في القانون العشرين: [وبما أن كل مؤمن يحتفظ بإيمان وثيق بالقيامة، فليس لأي أحد عذر في التهرب من الإستشهاد].

أما ترتليان، فيؤلف هو الآخر نبذة عن الإستشهاد ويهديها إلى جماعة من الموعوظين في طريقهم إلى الإستشهاد، وهي تحثهم على الشجاعة. ثم يكتب سنة ٢١٣م مقالة أخرى يسميها «ترياق العقرب» ضد الغنوسيين الذين يسميهم بالعقرب، لأنهم كانوا يستهينون

(4) Quasten, II, p. 149.

بـالإسـتـشهاد و يفضّلون الهرب منه ، وفيها يقول : [إن الإستشهاد ميلاد جديد تربح فيه النفس حياتها الأبدية .](٥)

و يقـول الـعـلامـة أوريجـانس عن الإستشهاد بسفك الدم إنه [واحد من سبع طرق لمغفرة الخطايا .](٦)

و يقـول الـقـديس كبـر يانوس إن في استشهاد الموعوظين بسفك الدم تقوم الملائكة بطقس التعميد(٧).

و يقول يوسابيوس القيصري المؤرخ الكنسي إن بالإستشهاد يصبح للشهيد الحق بعمه أن يُسمـع صوتـه في إعـطـاء الشركة مرة أخرى للذين خرجوا عن الإيمان وتابوا ، وطلب السلام والصفح والحل للخطاة(٨) .

و يقول كبر يانوس الشهيد إن سلام الشهيد هو من سلام الله ، وكل من ينال سلاماً من شهيد فكأنه قد ناله من الله(٩)، لذلك كان بمجرد أن يستودع الشهيد السجن تمهيداً للإستشهاد تتقاطر عليه الجموع طلباً للسلام والنعمة(١٠).

و بـعـكـس مـا يـظـن بـعـض المسيحيين الآن بخصوص تمكن الإنسان من إحساسه الـكـامـل بـخـلاصـه في هـذا الـدهـر، يؤكد الشهيد إغناطيوس، حتى قبيل نواله إكليل الـشـهـادة بمدة قـلـيـلـة ، أنه غير واثق من هذا الأمر بل وخائف : [ليت روحي تتقدس بواسطتكم (بصلواتكم) ليس الآن فقط ، بل وعندما أبلغ الله ، مقصدي . لأني حتى الآن لا زلـت عرضة للخطر، ولكن أمين هو الله الذي يحقق توسلكم وإياي في يسوع المسيح .] (الرسالة إلى تراليا ــ فصل ١٣)

(5) Ibid., p. 281.
(6) Origen, in Lev., Hom. 2, 2.
(7) Cyprian ad. Fortum., pref. 4.
(8) Euseb., Ecc. Hist., V, 1, 40, II, 7, 8.
(9) Cypr., Ep. XXIII.
(10) Tert., De predic., 22.

رغبة الإستشهاد لا يُعلن عنها بالكلام بل بالإرادة والصلاة:

وفي هذا المعنى يتوسل الشهيد إغناطيوس توسلاً لدى أهل رومية في الفصل الثاني أن لا يعوقوا استشهاده بكثرة تعلقهم به وحبهم (لجسده)، أو دفاعهم عنه، معبراً بذلك عن إرادة عميقة تتغلغل روحه للإنطلاق!! [اطلبوا عني ليهبني الله قوة من الداخل وفي الخارج معاً، حتى لا تكون مسيحيتي كلاماً بل إرادة!! وأُوجَدَ بالفعل كذلك!! حينئذ لا أعود أظهر بعد للعالم، فليس شيء مما يُرى أبدياً.] (رومية فصل ٣)

ثم يعود الشهيد إغناطيوس يشدد على رغبته في الإستشهاد لدى جميع الكنائس مراراً وتكراراً مُظهراً بذلك مدى تغلغل إرادة الإستشهاد واستعداد الموت من أجل المسيح: [كتبت إلى جميع الكنائس مؤكداً لديها جميعاً إني أشاء أن أموت لله مختاراً فلا تعوقوني.] (رومية ــ الفصل الرابع)

وفي لمحة خاطفة يكشف لنا الشهيد إغناطيوس سر هذه الإرادة الجامحة التي كانت تعصف بكل كيانه طلباً للشهادة، فهو يحس أن في لحظة الإستشهاد، بلوغ قمة التحرر من الناس والعالم والجسد [حتى لا أكون فيما بعد سبباً في ضيقة إنسان... لا زلت إلى الآن عبداً، ولكن حينما أجوز الشهادة سأصير محرَّراً للمسيح وأقوم معتوقاً للرب، أما الآن وأنا في سجني هذا فقد تعلمتُ أن لا أطلب أو أشتهي شيئاً من أباطيل الدنيا.] (رومية فصل ٤)

وعلى هذا القياس يعتبر القديس يوحنا ذهبي الفم أن الإستعداد القلبي للشهادة يُحسب أنه شهادة.(١١)

لحظات التجلي الأخيرة:

وعندما يبلغ الشهيد إلى الصفر في علّه التنازلي في إحساسه بالدعوة لرحلته السعيدة، وهذه قد تأتي في لحظة من لحظات الحب المشبَّع بالإيمان والرجاء الملتهب، فحينئذٍ لا يعود

(11) Chrys., ii, 601, ed. Mign.

الشهيد يطيق البقاء. ولا يعود يبالي بالعذاب أياً كان نوعه! اسمع أيضاً الشهيد إغناطيوس في ذلك: [الآن أنا أعرف تماماً ما هو لربحي!! الآن قد بدأت أن أصير تلميذاً، ليت لا يحجزني شيء ما عن بلوغ المسيح غايتي. مرحباً بالنار والصليب، مرحباً بالوحوش الضارية، مرحباً بتمزيق مخالبها، وترضيض عظامي، مرحباً بانفصال أوصالي، مرحباً بتقطيع أعضائي، مرحباً بتحطيم جسدي كله، نعم مرحباً بكل عذاب يصبُّه الشيطان عليَّ، فقط دعوني أبلغ المسيح غايتي!!] (رومية فصل ٥)

ومعروف أن الشهيد في أيامه الأخيرة إنما يتكلم بما ليس من عنده، لأن روح الله القدوس يكون رفيقه بصورة علنية مصداقاً لقول المسيح: «فمتى ساقوكم ليسلموكم فلا تعتنوا من قبل بما تتكلمون ولا تهتموا. بل مهما أُعطيتم في تلك الساعة فبذلك تكلموا. لأن لستم أنتم المتكلمين بل الروح القدس.» (مر١٣: ١١)

وفي هذا يصف الشهيد إغناطيوس خبرته الخاصة هكذا: [المسيح يسوع يعلن لكم هذه الأمور حتى تتأكدوا أني أتكلم بالحق. أنا لم أكتب لكم مما هو للجسد بل ما هو بحسب إرادة الله.] (رومية ــ فصل ٨)

لذلك كان المسيحيون يتقاطرون حول الشهداء في لحظاتهم الأخيرة يتنسمون رائحتهم و يتقبلون نصائحهم و يتزودون بدعواتهم و يتزاحمون على لمس أجسادهم و يغمسون أثمن ما عندهم في قطرات دمائهم!

الطقوس الخاصة بالشهداء وتكريم الشهداء حسب التقليد:

لقد حُسبت أجساد الشهداء منذ العصر المسيحي الأول كودائع مقدسة توضع في أثمن الأكفان وتُستودع أعظم وأقدس الأماكن، وكانت أجسادهم تُدفن تحت مذابح الهياكل تشبهاً بما جاء في سفر الرؤيا (٦: ٩): «رأيت تحت المذبح نفوس الذين قُتلوا من أجل كلمة الله ومن أجل الشهادة التي كانت عندهم».

ويقص علينا المؤرخ يوسابيوس القيصري أن المؤرخ هيجيسيوس رأى بنفسه جسد القديس يعقوب البار أخي الرب موضوعاً تحت المذبح في وضع ظاهر. (١٢)

وكانت هذه الأجساد تُحسب مقدسة وبمثابة شهادة وختم على غلبة الفرح السماني فوق خبث ومكايد الأرض، لأن الفرح والتهليل والإبتسامة لم تكن تفارق وجه الشهداء وهم في طريقهم من السجن إلى موضع العذاب. وكانت روائح عطرة سماوية تفوح منهم قبل وبعد الإستشهاد. (١٣)

هذا شجع المؤمنين جداً لكي يجعلوا من مقابر هؤلاء الشهداء موضعاً لائقاً بهذه السمات السمائية التي طبعها الله على أجسادهم، وذلك بالرغم من إلحاح الشهداء أنفسهم برفض أي تكريم لأجسادهم ــ كما جاء على لسان الشهيد إغناطيوس في رسالته إلى رومية الفصل الرابع. ولكن بعض الشهداء لم يمانعوا من أن تُحفظ أجسادهم للتذكار ــ كما جاء على لسان الشهيدة بربتوا. (١٤)

وقد اعتُبرت ذخائر الشهداء أثمن من الذهب، حتى إن يهود العصر المسيحي الأول ــ حقداً منهم ــ عيَّروا المسيحيين بأنهم كانوا ينوون ترك عبادة يسوع ليعبدوا جسد بوليكاربوس أسقف أزمير الشهيد(١٥). فما كان هذا إلا ليضرم روح المسيحيين لتكريم بقايا جسد بوليكاربوس أكثر وأكثر. ويقول المؤرخ يوسابيوس أن امتلاك أي كنيسة لجسد شهيد أصبح بمثابة كرامة وشهرة، بالإضافة إلى اعتبار ذلك توكيداً وضماناً لصحة إيمانها وعقيدتها. (١٦)

وبناءً على هذه القيمة العالية التي صارت لأجساد الشهداء بالنسبة لشهرة الكنيسة

---

(12) Euseb., H. E., II. xxiii.
(13) Ibid., V, I, 19, 30.
(14) Acta Perpetua 21.
(15) Mart. Polyc. 17,18.
(16) Euseb., H. E., V, XIV, 2-4.

وصحة عقيدتها، صار التنازع والتسابق على امتلاك هذه الأجساد، ثم صار بالتالي السعي لنقلها من مكان لمكان، إما بالسرقة العلنية أو بتوصيات الرؤساء التي بلغت حد إصدار أوامر إمبراطورية بذلك، كما حدث في أيام فابيان أسقف روما إذ استعان بأمر إمبراطوري لنقل جسدي القديسين بونتيانوس وهيبوليتس من سردينيا إلى روما. (١٧)

ولكن العبادة المسيحية تسمو على أي نظير لها بالنسبة لتكريم الشهداء، باعتبار أنهم لا يُحسبون كاملين بدوننا، فتقوى الأحياء منا واجتهادهم وتوبتهم إنما هي ضرورية لتكميل جهاد الشهداء، كما جاء في الرسالة إلى العبرانيين (١١: ٤٠): «إذ سبق الله فنظر لنا شيئاً أفضل لكي لا يُكملوا بدوننا».

أما إقامة سر الإفخارستيا في كنائس الشهداء وأماكن شهادتهم، فتعتبره الكنيسة جزءاً هاماً من شهادتها وإيمانها وتواتر تذكارها السرائري، بحسب وصية بولس الرسول في سفر العبرانيين: «أذكروا المقيدين كأنكم مقيدون معهم، والمذلين كأنكم أنتم أيضاً في الجسد... أذكروا مرشديكم الذين كلموكم بكلمة الله. **أنظروا إلى نهاية سيرتهم فتمثلوا** بإيمانهم.» (عب١٣: ٣و٧)

كما يعطينا أيضاً سفر الرؤيا تنبيهاً إلى دوام ذكر شهادة الشهداء كذخيرة تحملها الكنيسة من جيل إلى جيل: «ولما فتح الختم الخامس رأيت **تحت المذبح** نفوس الذين قتلوا من أجل كلمة الله **ومن أجل الشهادة التي كانت عندهم.**» (رؤ٦: ٩)

ولقد اعتبرت الكنيسة أن شهداءها هم سفراء دائمون لها عند المسيح يحملون تذكار إخوتهم الذين على الأرض كلما تراءوا أمام المسيح. (١٨)

ويقول العلامة أوريجانس بخصوص شفاعة الشهداء: إن يوحنا (رؤ ٦) يكتب أن أرواحهم لها عمل تجاه المذبح (تحت المذبح). ونحن نعلم أن الذي يشتغل لدى المذبح

(17) Catalog. Libarian.
(18) Euseb., Mart. 7.

إنما يؤدي خدمة كاهن، وعمل الكاهن إنما يشفع بخصوص خطايا الناس. (١٩)

ولعل في قول المسيح للص المصلوب عن يمينه «**اليوم تكون معي في الفردوس**» باعتباره أنه صار بإيمانه شهيداً أو شاهداً للمسيح، توضيحاً **لمدى قدرة الشهادة أثناء الموت على توصيل صاحبها إلى الفردوس**. كذلك يُعتبر قول الرب، في سفر الرؤيا، للذين غلبوا بكلمة شهادتهم «**من يغلب فسأعطيه أن يأكل من شجرة الحياة التي في وسط فردوس الله**» (رؤ٢: ٧)، تلميحاً لمدى الإمتياز السري الذي يحصل عليه الشهداء من شهادتهم!

أما إكليل الشهادة الذي تتمسك به الكنيسة على أنه حق من حقوق الشهداء وترسمه دائماً حول رؤوسهم، فهو أصلاً مأخوذ من قول بولس الرسول: «فإني أنا الآن أُسكب سكيباً ووقت انحلالي قد حضر، قد جاهدت الجهاد الحسن، أكملت السعي، حفظت الإيمان، وأخيراً قد وُضع لي إكليل البر الذي يهبه لي في ذلك اليوم الرب الديان العادل، وليس لي فقط بل لجميع الذين يحبون ظهوره أيضاً.» (٢تي ٤: ٦—٨)

وقد رأى كثيرون منظر هذا الإكليل عياناً وهو يوضع على رؤوس الشهداء لحظة شهادتهم الأخيرة. (٢٠)

و يقول القديس كبريانوس(٢١) إن الشهداء سيدينون العالم مع المسيح. ومن هنا صارت شفاعتهم أيضاً لدى المسيح: «من **هو الذي يدين**؟ المسيح **هو الذي مات** بل بالحري قام أيضاً، الذي هو أيضاً عن يمين الله، **الذي أيضاً يشفع فينا**.» (رو٨: ٣٤)

وعلى هذا الأساس لا تقدم الكنيسة صلوات وتشفعات **عن** الشهداء، بل تقدم تذكارات طلباً لشفاعتهم. (٢٢)

(19) Origen, in Num. x, 2, t. ii, p. 303.
(20) Mart. Polyc. 19; Euseb. H. E. V, 2, ch. 37; Acta Fuructosi.
(21) Cypr. Epist. VI. 2, xv. 2, xxx. 3.
(22) Euseb. Const. apol. VIII, c. 13.

و يقول القديس أغسطينوس إننا لا نصلي من أجل الشهداء لأنهم أكملوا المحبة أكثر من أي إنسان آخر، لذلك نحن نطلب منهم أن يصلوا من أجلنا(٢٣). و يعود في موضع آخر و يقول إنه من الخطأ أن يصلي أحد من أجل شهيد. (٢٤)

أما القديس باسيليوس في عظته على «برلام و يواصف» فيتكلم عن الشهداء باعتبارهم يعملون صيادين للناس بعد موتهم، إذ يصطادون ربوات من الناس إلى مقابرهم!!

ثم يعود في موضع آخر و يقول: [أذكروا الشهداء(*) يا من تمتعتم برؤ ياهم في الأحلام.

أذكروا الشهداء يا من حضرتم وأوقدتم الشموع هنا ليكونوا لكم عوناً في صلواتكم،

أذكروا الشهداء يا من أخذتموهم عوناً لكم في أعمالكم إذ تطلبونهم بأسمائهم،

أذكروا الشهداء يا من عدتم من بعد ضلال وغربة إلى أوطانكم،

أذكروا الشهداء يا من تعافيتم من بعد مرض، و يا من أُنقذت أطفالكم من حافة الموت، و يا من طلبتم طول عمر فأخذتم.

تذاكروا أعمالهم، واجمعوا مديحكم جيعاً، واكتبوا أسماءكم علناً في سجل فخرهم، ووزعوه على بعضكم، مخبر ين بما يعرفه كل واحد للآخر.](٢٥)

ونستطيع أن نحصل على صورة من أقوال القديس غر يغور يوس النز ينزي الناطق بالإلهيات بخصوص تكريم بقايا الشهداء في عظته عن القديس والشهيد كبر يانوس بقوله: [إن تراب كبر يانوس، بالإيمان، يستطيع أن يعمل كل شيء، والذين لجأوا إلى ذلك يعلمون صحة ما أقول.](٢٦)

---

(23) Aug., in John., tract. Lxxxiv.

(24) Aug., Sermon 159. v. 867.

(*) كلمة «الشهداء» في الأصل مكتوبة بصيغة المفرد. «الشهيد».

(25) On Mamas, p. 185.

(26) Greg. Naz., I, 449.

أما القديس غريغوريوس النيصي أخو القديس باسيليوس الكبير، فنستطيع أن نحصل منه على عقيدة الكنيسة من نحو تكريم الشهداء وتقييم بقاياهم الموجودة في الكنائس في عظته المطولة عن الشهيد «ثيئودور» ألقاها في كنيسته سنة ٣٨١ في يوم ٧ فبراير، يقول فيها:

[لقد سار إلى الله في الطريق الأفضل والأعظم طوبى؛ تاركاً لنا بقاياه في هذا البهو، التي هي ذكرى نضاله، التي صارت لنا بحد ذاتها رواق تعليم وتهذيب تجتمع حولها الجماهير، فصارت (بقاياه) مصدر تهذيب للكنيسة تطرد الأرواح النجسة وتحدر لنا الملائكة القديسين، نطلب بها ما هو صالح لنا، حتى صارت هذه (بقايا جسده) بمثابة بهو استشفاء لكل الأوجاع، وملجأ أميناً للذين داهمتهم المحن، وكنز خيرات للفقراء والمعوزين، منارة يهتدي بها التائهون، عيداً لا يفرغ لمحبي تقديس الأيام، مكان احتشاد لا يفرغ من الآتين والذاهبين كالنمل الذي يسعى بنشاط لا يهدأ.](٢٧)

ثم يستطرد القديس غريغوريوس النيصي متوسلاً إلى الشهيد ثيئوذور رأساً قائلاً:

[نحن نفزع إليك من هذه المحنة ونطلبك من أجل هذه المخاطر لأن السكيثيين يهددوننا بالحرب وهم ليسوا ببعيدين عنا. حارب عنا كجندي، وكشهيد أسرع بالمعونة لإخوتك العبيد، لأنك أنت حرّ الآن لتتكلم عنا، لقد رحلت عن هذه الحياة التي لنا الآن، ولكنك لا تجهل مصاعبها وأعواز الناس. توسل من أجل السلام، فإليك نعزو الفضل في أمان هذا الموضع حتى الآن، لذلك نتوسل أن تصلي عن أمانِهِ في المستقبل، أما إذا كنت تحتاج إلى مزيد من المعونة من أجل التوسل المناسب عن هذا الأمر، فاجمع صفوف الشهداء إخوتك. ذكّر بطرس وأيقظ بولس ليكونا معك.](٢٨)

---

(27) Greg. Nyss. iii, 578.
(28) Ibid.

كذلك نعثر على صلاة توسلية للقديس مار أفرآم السرياني المدعو «قيثارة الروح القدس» وهو يتشفع بالأربعين شهيداً من أجل نفسه. (٢٩)

و يوضح القديس كيرلس الأورشليمي شفاعة الشهداء ويجعلها على مستوى الرسل في معرض حديثه عن المجمع في القداس، هكذا: [ونذكر أيضاً الذين سبقوا فرقدوا، أولاً البطاركة (إبراهيم وإسحق و يعقوب) والأنبياء والرسل والشهداء، حتى بصلواتهم وتشفعهم يقبل الله توسلاتنا.](٣٠)

ونلاحظ أن هذه الكلمات هي مقدمة «المجمع» في القداس الإلهي الآن.

ومن رسالة كتبها القديس إبيفانيوس أسقف قبرص سنة ٣٩٤م يعترض فيها على تصوير الشهداء، بل وعلى تصوير المسيح والعذراء مريم، نعلم أن الكنائس أقامت بالفعل صوراً لشهدائها منذ البدء تكريماً وتذكاراً لهم. (٣١)

وقد ظلت الكنيسة القبطية مُحجمة عن استخدام الصور في الكنائس مدة طويلة بعد ذلك أيضاً.

وعندنا أيضاً عظة بديعة للقديس باسيليوس عن هؤلاء الشهداء الأربعين، توضح لنا مدى إيمانه بشفاعة هؤلاء الشهداء: [الناس يجهدون لكي يجدوا واحداً يصلي عنهم، وها هنا أربعون مرة واحدة!! فإن كان أثنان أو ثلاثة حينما يجتمعون باسم الرب يكون الله في وسطهم، فماذا إذا اجتمع أربعون؟ من ذا يشك إذن في وجود الله وسطهم؟ هؤلاء الأربعون يدافعون عن بلدنا كخط دفاع من حصون وقلاع! لكنهم لا يغلقون على أنفسهم، إنما يجولون في كل موضع. والعجب أنهم يزورون البيوت غير متفرقين كلما يستضيفهم أحد من الذين يتشفعون بهم، فهم يسيرون معاً كخورُس واحد متحد! فإذا

(29) Eph. Syr. II. 355, 391.
(30) Cyril of Jer., Cat. myst. 5, 8-10.
(31) K. Holl., Pamphlet against the images, 360-62.

قسمتهم إلى مائة دعوة تجدهم بعددهم، وإذا حصرتهم في واحدة تجدهم أربعين كما هم، كالنار!!] (٣٢)

طقس السهر طول الليل وقداس الصباح في تذكار الشهداء:

ومن تقاليد الكنيسة الموروثة منذ القرون الأولى، الإحتفال بذكرى الشهداء بالسهر طول الليل مثلما كان يعمل تماماً في كل يوم أحد للرب وبقية الأعياد الكبرى، وذلك بالتسابيح والألحان الطويلة والصلوات حتى الصباح. ويتضح ذلك من قول يوحنا ذهبي الفم لشعبه في إحدى هذه الليالي: [هوذا قد قلبتم ليلتكم إلى نهار بقيامكم طول الليل ساهرين، فالآن لا تحوّلوا النهار إلى ليل بالسكر والإنحلال والأغاني الخليعة.] (٣٣)

وكذلك يعطينا نفس هذه الصورة، القديس صيدونيوس أبوليناريوس أسقف كليرمون بفرنسا (٤٣٢ — ٤٨٠ م) وكان عالماً وسياسياً وأديباً وشاعراً: [ونحن نجتمع معاً في مقبرة القديس يوستس الشهيد (استشهد سنة ١٦٥م في روما) في التذكار السنوي له حيث يتقاطر الشعب رجالاً ونساءً بأعداد هائلة حتى تضيق بهم الكنيسة مع أنها على اتساع كبير ومع ما حولها من مجاميع كثيرة من القلالي! وعندما ينتهي السهر الذي يقوم به الرهبان، والتسابيح والألحان التي يقودها الشمامسة بالتتابع، نخرج قليلاً للراحة لنعود في الساعة الثالثة (أي التاسعة صباحاً) حيث يبدأ الكهنة بالخدمة الإلهية وكأنه عيد.] (٣٤)

أما في مصر فكانت ولا زالت الكنيسة تقيم حفلة أغابي بعد القداس لإطعام الشعب والتوزيع على الفقراء. وكانت تسمى «أغابي — أنامنيسيس» أي «محبة للتذكار». ويعطينا القديس أثناسيوس الرسولي صورة واضحة لمقدار توقير الكنيسة للشهداء وأعيادهم وطقس إقامة السهر الليلي والقداس الخاص بهم في قانونيه رقمي ٩١ و٩٢

(32) St. Basil, II. 55.
(33) Hom. 39, On Martyr.
(34) L. 5, Ep. of Bingh., vol. 7, p. 353.

هكذا:

قانون ٩١: [ومن أجل الشهداء، فلتكن أعيادهم باحتفاظ عظيم وترتيب عظيم، تعمل لهم إجتماعات و يقيم الشعب الليل كله في التزمير والصلوات والقراءة الطاهرة] .

قانون ٩٢: [أما الرهبان والراهبات فلا يمضي أحد منهم إلى المرتير يون أي مواضع الشهداء التي فيها ملاهي بانحلال. بل كل دير للعذارى تقيم راهباته ليلة الشهداء في ديرهن. وقبل ما يجتمعن في موضع الشهداء يصلين. وعند وقت القربان ينذرونهن، فيأتين إلى البيعة قبل قراءة المزمور.](٣٥)

كذلك نستطيع أن نحصل على صورة واضحة لعقيدة تكريم الشهداء من عظات القديس يوحنا ذهبي الفم: [أما إذا أردتم الترو يح عن أنفسكم فاذهبوا للحدائق أو الأنهار... أو أكثروا من ترددكم على أماكن الشهداء حيث فيها الصحة لأجسادكم والسلام لنفوسكم، ولا يكون منها خسارة أو ندم.](٣٦)

كذلك أيضاً نقرأ ليوحنا ذهبي الفم: [إن تذكار الشهداء يؤثر تأثيراً مذهلاً على أفكار الشعب، لأنه يشددهم ضد محاربات الشيطان ويحصنهم إزاء الأفكار والتصورات الشر يرة ويهبهم هدوءاً نفسانياً كبيراً.](٣٧)

[إن شهادة الشهداء وسيرتهم أمامنا هي بحد ذاتها عظة للإنسان المسيحي، وعون للكنيسة، وتشبيت للإيمان المسيحي وغلبة لأوهام الموت، وعيّنة للقيامة، وتوبيخ للشيطان، وتعليم للفلسفة الحقيقية، واحتقار أباطيل الدنيا، والدليل النصوح للسمو بمطالب النفس، وراحة وعزاء للنفس الحز ينة، ومحرك للصبر، ودخول في مجال القوة، و باختصار فإن سيرة الشهداء هي ملهمة لكل الأمور الصالحة.](٣٨)

(٣٥) مخطوطة رقم ٢٥١ بالمكتبة الأهلية بباريس.

(36) Chrys., Hom. in Matt. 37.

(37) Chrys., Hom. 20, 67. Bingh. Work, vol. 7, pp. 349, 350.

(38) Ibid.

[وعندما نتصور كيف احتقر الشهداء الموت، فمهما كنت جباناً أو كسلاناً، فلا بد أن تستلهم أفكاراً عالية ومجيدة وتحتقر كل توافه المسرات والغنى الأرضي وتتوق أن يكون لك سيرة في السموات. ومهما كانت الآلام والأمراض التي تحسها في جسدك، فإنك بتصور آلام الشهداء سيدخلك إحساس قوي عنيد بالصبر والرضى. ومهما كان إحساسك بالفقر والعوز والضيقة، فبمجرد أن تتأمل في عذابات الشهداء التي احتملوها، فإنك ستشعر بالعزاء والإكتفاء وتكون لك آلامهم بمثابة الدواء الشافي. من أجل ذلك فإني دائماً أزكّي إقامة تذكار الشهداء، وقد أحببتهم جميعاً وكأني أحتضنهم في صدري.](٣٩)

ويصف لنا المؤرخ ثيئوذوريت صورة لحفلات الصلاة في أماكن الشهداء في أيامه هكذا:

[وعوض مخازي ديانا وديونيسيا صار يُقام الآن حفلات التكريم والموائد العامة لذكرى بطرس وبولس وتوما وسرجيوس ومارسيللوس ولونديوس وبانديمون وأنطونيوس وموريس وبقية الشهداء. وهكذا بدل أعمال المجون والمخازي السالفة قامت الأعياد الوقورة التي بلا سكر ولا مزاح، بألحان وتراتيل سماوية وعظات مقدسة وصلوات ودموع.](٤٠)

ويعطينا القديس يوحنا ذهبي الفم صورة أكثر أهمية عن كيف تحتفل الكنيسة لذكراهم بإقامة الإفخارستيا دائماً بعد سهر طول الليل: [وإن احتفالات الشهداء يستحيل أن تكمل بدون اشتراك الكنيسة كلها في التناول من جسد الرب ودمه بعد سهر دائم طول الليل.](٤١)

ويعطينا القديس أغسطينوس لمحة سريعة عن اعتقاده بشفاعة الشهداء هكذا:
[فإذا وجدنا أنفسنا غير مستحقين أن نطلب ونأخذ، فعلينا أن نسأل بتوسط أصدقائه

(39) Ibid.
(40) Theod. Graec. Cur. viii.
(41) Hom. on Mart., 59.

(أصدقاء العريس أي الشهداء).](٤٢)

ولو أننا في مواضع أخرى نجد القديس أغسطينوس يشكو مر الشكوى من تمادي الناس في رفع قيمة الشهداء حتى صارت فوق الرسل!

ولكن يعود أغسطينوس نفسه في كتابه «مدينة الله» في الفصل ٢٢، يعدد المعجزات التي تمت بواسطة الشهداء. وفي الفصل ٩ يربط أغسطينوس بين جسد المسيح كذبيحة وبين الشهداء، معتبراً أن أقدر من يمثل جسد المسيح كذبيحة هم الشهداء؟!!

وفي تصميم القديس أمبروسيوس على وصيته بدفن جسده بجوار الشهيدين بروتاسيوس وجيرفاسيوس دليل على مدى ارتباط إيمان أمبروسيوس بقيمة الشهداء وتشفعهم. (٤٣)

و يعبر لنا القديس مكسيموس الذي من تورين عن القيمة المعنوية لوجود أجسادنا بالقرب من أجساد الشهداء بقوله: [إن أسلافنا أوصونا أن نلصق أجسادنا بعظام الشهداء حتى حينما يشرق المسيح على الشهداء يرفع عنا ضمناً ما فينا من ظلام.](٤٤)

وفي النهاية يؤكد لنا ترتليان أن الكنيسة كانت تحرص جداً على إقامة الإفخارستيا في تذكارات الشهداء ليس من أجل اشتراك الشعب فحسب بل ومن أجل الشهداء أنفسهم: [نحن نرفع الذبيحة عن الشهداء (الأموات) في يوم ميلادهم (استشهادهم) الذي هو ميلادهم الجديد للسماء وللسعادة، وذلك في يوم ذكرى استشهادهم.](٤٥)

كما يؤكد ذلك القديس كبريانوس الشهيد (استشهد سنة ٢٥٨م) في قوله: [أنتم تذكرون كيف أنه من عادتنا أن نقدم الذبيحة من أجل الشهداء كلما أقمنا تذكاراً

(42) August. Serm. 332, t. V. 1462.
(43) Ambros., opp. II, 1110.
(44) Max. of Taurin, Hom. lxxxi.
(45) De Cor. Mil. 3.

لاستشهادهم في أيامهم المحددة.](٤٦)

تقنين الشهداء وتحديد أعيادهم رسمياً:

منذ أيام بوليكاربوس الأسقف والشهيد وتحديد استشهاده عيداً رسمياً للكنيسة في ٢٣ فبراير سنة ١٥٥م، بدأت الكنيسة تنتبه لإقامة هذه الأعياد الفردية، وكانت تسميها «عيد ميلاد الشهيد» باعتبار أن يوم استشهاده هو الميلاد الحقيقي للحياة العليا. وهذا ما زلنا نسميه «مولد الشهيد». وهذا التعبير قديم في الكنيسة، فنحن نقرأه لترتليان: [إن بولس الرسول ولد ثانية بميلاد جديد في روما لأنه جاز آلام الموت هناك](٤٧)، والقديس يوحنا ذهبي الفم يقول في ذلك: [لأن موت الشهيد هو في الحقيقة ليس موتاً بل حياة أبدية، ولهذا احتمل كل عذاب واحتقر الموت.](٤٨)

ومن رسالة سجلها لنا المؤرخ يوسابيوس بعث بها شعب أزمير لكنيسة فيلوميليتم يتضح لنا الروح التي كانت تقام بها هذه التذكارات: [وبمعونة الله سوف نجتمع في مقبرته ونحتفل بتذكار ميلاده (استشهاده) بالفرح والتهليل متذكرين أنواع آلامه ليكون ذلك عبرة للخلف.](٤٩)

ولكن منذ أيام القديس كبريانوس بدأت الكنيسة تضع تقويماً بأسماء شهدائها وتاريخ أعيادهم، كما نقرأ هكذا: [وذلك لإقامة تذكار آلام الشهداء في أيام استشهادهم منذ أيام ما قبل اضطهاد ديسيوس، مع سجل سنوي بذلك.](٥٠)

وأول سجل رسمي للكنيسة بأسماء الشهداء وتاريخ استشهادهم يأتينا من أيام أسقف روما أنتيروس Anteros سنة ٢٣٥م (الذي دامت أسقفيته على روما شهراً

(46) Cypr., Epist. 34.
(47) Tert., Scorpiac. contra Gnostic, c. 15.
(48) Chrys., Hom. 43 de S. Roman.
(49) Euseb., H. E. B IV, c. 15.
(50) Cypr., Ep. 39 or 34.

واحداً وعشرة أيام أخذ بعدها شهيداً على زمن مكسيمين الإمبراطور)، وقد استُشهد هذا البابا الغيور بسبب اهتمامه بجمع سير الشهداء، فقد قيل عنه: [و بغيرة ونشاط زائد اهتم هذا القديس الشهيد أن يجمع سير الشهداء من كافة مسجّلي الكنيسة واستودعها أرشيف الكنيسة، الأمر الذي بسببه صار شهيداً بيد الوالي المحلي بيو بينوس مكسيموس.](٥١)

أما أول مسجل لحوادث الإستشهاد في تاريخ الكنيسة القبطية فهو يوليوس الأقفهصي كاتب سير الشهداء، الذي عاش في زمن اضطهاد ديوقلديانوس كشاهد عيان وشهيد. و يقابله في روما المسجلان فالز يوس و باجي(٥٢).

ثم يأتي في تاريخ روما البابا فابيان بعد أنتيروس مباشرة سنة ٢٣٦م من جهة تسجيل الشهداء، و يعين رسمياً سبعة مساعدي شمامسة وسبعة مسجلين ليجمعوا كافة سير القديسين بصفة عامة(٥٣).

أما أول تقويم رسمي جامع ظهر في روما، فكان سنة ٣٥٤م، وقد قام بإعداده في مدينة روما المدعو بصاحب التقويم فيور يوس ديونيسيوس فيلوكالوس الذي صار فيما بعد بابا روما.

أما في إقليم الغال أي فرنسا، فقد عثر حديثاً بواسطة «ماي» Mai على بقايا تقويم كنسي من القرن الرابع يحوي عدة شهداء محليين، أي من إقليم الغال فقط.

ثم نقرأ في تاريخ كبريانوس بالنسبة لشمال أفريقيا أنه اهتم جداً بتحديد الأيام التي يستودع فيها الشهداء أرواحهم، بكل تدقيق، وذلك بتوصية خاصة منه لدى كل الكهنة والشمامسة(٥٤) وذلك لتحديد تذكارات كنسية لهم.

(51) De Rossi., Rom. Scot. II. 181.
(52) Bingh., Works., vol. 7, p. 343.
(53) De Rossi Rom. Scot. II. 181.
(54) Cypr., Ep. 12 or 37.

ولكن في الشرق تعتبر عظات الآباء المشهورين وكتب الأسرار، المصدر الأساسي لجمع سير القديسين وتحديد أعيادهم التذكارية. ولكن الذي نلاحظه بوضوح أن كل كنيسة كانت تقتصر في تعييدها على شهدائها الأخصاء فقط، فمثلاً نجد القديس باسيليوس يقصر عظاته التذكارية على الآباء الكبادوكيين، في حين نجد يوحنا ذهبي الفم يقصر عظاته على الأنطاكيين. ولم يشذ عن هذا التحيز إلا أغسطينوس، فنجد صدره يتسع ليشمل شهداء أسبانيا العظام مثل فركتوز يوس، وشهداء روما مثل القديسة أجنس، وشهداء فرنسا مثل بروتاسيوس وجرفاسيوس.

أما التقويم (السنكسار) السرياني فظل زمن بدء تجميعه مجهولاً إلى أن عثر حديثاً الدكتور Wright على بيان مفصل بذلك في مخطوطة هامة ضمن مجموعة مخطوطاته المسروقة من وادي النطرون، برقم ١٢/١٥٠، وزمن كتابتها سنة ٤١٢ ميلادية، وتحوي من الورقة ٢٥١ – ٢٥٤ سجلاً بأعياد الشهداء يبدأ بالعنوان الآتي: [أسماء أسيادنا الشهداء المنتصرين وتاريخ الأيام التي نالوا فيها أكاليلهم.]

وتبدأ الأعياد ليس بعيد الميلاد كما كنا نظن، بل بالشهيد إسطفانوس وعيده ٢٦ ديسمبر، ثم يعقوب و يوحنا ٢٧ ديسمبر في أورشليم، و بطرس و بولس ٢٨ يونيو في روما، و يستمر كذلك لجميع الرسل، ثم يذكر بربتوا في ٧ مارس وأكسيستوس بابا روما في أول أغسطس، و يقسم الشهداء بحسب مناطق العالم، فيعطي لإقليم نيقوميديا ٣٠ شهيداً، وأنطاكيا يخصها وحدها ٢١ شهيداً، والإسكندرية ١٦، وقيصرية في كبادوكيا ٦، وأنقرة ٥، وهكذا أقاليم أماسا وأفروديسيا وأكسيو بوليس و بوتونيا و بيزنطة وقيصرية فلسطين وخلقيدونيا و كورنثوس وأديسا (الرّها) وإيومنيا وهادر يانو بل وهلينو بوليس وهيراكليا في تراس وهيرو بوليس ولاذوقيا ولسترا وميليتين ونيقو بوليس ونصيبين و برغاموس و برنيثوس وسالونا وسرميم وتسالونيكا وتومي و بيثينيا وغلاطية وأيسوريا. وفي ختام هذه السجلات كل منها بإقليمه يذكر المسجل أسماء ٢٤ من الشهداء دون أن يحدد مواطنهم. وفي ختام هذا القسم الكبير يذكر البابا بطرس الإسكندري خاتم الشهداء

في ٢٤ نوفبر مضيفاً إلى ذلك: «وإلى هنا تنتهي أسماء شهداء الغرب».

ثم يبدأ القسم الآخر بقوله: [أسماء أسيادنا الشهداء الذين ذُبحوا في الشرق]. ويقسّمهم — تحت عناوين — إلى شهداء أساقفة بكراسيهم، ثم شهداء قسوس، ثم شهداء شمامسة وهكذا. (٥٥)

سير أعمال الشهداء في مصر

أولاً: سنكسار الإسكندرية الجامع (أو سنكسار هيرونيموس):

وهو مجموع من عدة سنكسارات محلية ويمتاز بشموله. ويقول عنه غريغوريوس الكبير بابا روما في رسالته رداً على سؤال أولوجيوس البطريرك الملكي بالإسكندرية عندما كتب إليه يستفسر عن مؤلف يوسابيوس الخاص بسجل أعمال الشهداء: [وفيه أسماء جميع الشهداء مجموعة في مجلد واحد مع ذكر آلامهم، يوماً بيوم، وأماكن أستشهادهم، حتى إن في اليوم الواحد يذكر أسماء من تكللوا من جميع الأقطار والأقاليم.](٥٦)

وكانت روما تمتلك نسخة، ونسخة أخرى كانت موجودة بالإسكندرية. ويقول غريغوريوس الكبير في تعليقه على هذا السنكسار الجامع: [وتقام لتذكارهم القداسات الرسمية يومياً، تمجيداً لهم].

ويمتاز هذا السنكسار بأنه كامل على مدار السنة بأيامها، وأن قديسيه من كل أقطار العالم. ويصفه أحد المؤرخين القدامى بأنه يسير على منهج سنكسار شهداء يوسابيوس القيصري. ويبدأ بذكر جيروم المهتم بترجمته، أما مادته فعظم أصولها الأولى مأخوذة من سجل أعمال شهداء يوسابيوس القيصري.

---

(55) Journal of Sacred Lit., vol. VIII, N. S. London 1866.
(56) Epist. XXIX.

والمعروف من تحقيق العلماء أن بحلول القرن الرابع، كانت جميع السنكسارات متبادلة في جميع أقطار العالم، بحيث لم يصبح هناك أي أعمال للشهداء غير معروفة أو غير مستخدمة في كل قطر. وهذا التآلف بين أعمال الشهداء صحبه أيضاً نفس الإتجاه في التآلف بين الإفخارستيات.

ثانياً: التقاوم الأربعة اليعقوبية التي قام بتحقيقها ونشرها العالم «السمعاني» مع ثلاثة تقاوم سريانية. وهي موجودة إلى الآن تحتاج إلى من يفحصها و ينشرها.

ثالثاً: أربعة تقاوم قبطية تم نشرها أخيراً، إثنان منها بواسطة العالم ماي Mai ، والإثنان الآخران بواسطة العالم سلون. وهذان قام بإعادة نشرهما العالم ليودولف مع تقويم إثيوبي بالغ الأهمية من القرن الثاني عشر يحوي كل شهداء مصر.

رابعاً: أعمال الشهداء التي جمعها وألفها مشاهير مؤرخي الأقباط وأولهم يوليوس الأقفهصي وآخرهم ميخائيل أسقف أتريب ومليج، باللغة القبطية البحيرية، وهي المخطوطات الموجودة بالفاتيكان ومتحف بورجيا والمكتبة الأهلية بباريس ومكتبات فرانكفورت وفلورنسا وروما.

وهذه المخطوطات قام العلماء حديثاً بجمع بعض موادها ونشرها في المجموعات المطبوعة المختلفة، بعضها على هيئة سنكسارات مثل مجموعة:

١ ــ ليودولف.
٢ ــ ماي Mai
٣ ــ مالان.
٤ ــ هنري هيفرنات.
٥ ــ رينيه باسيه.
٦ ــ بولند.
٧ ــ تيمون.

٨ ــ أميلينو.

أما أهم هذه المجموعات وأكثرها تخصصاً في سير الشهداء، فهي مجموعة هيفرنات وكلها بالقبطية البحيرية. ونحن بانتظار اليوم الذي يفتح الله فيه على الكنيسة القبطية وتؤلّف لجنة من علماء الرهبان لجمع هذه المخطوطات والفهارس وترجمتها ونشرها، وكتابة تاريخ للشهداء يتناسب مع مكانتهم في الكنيسة على الأرض وفي السماء.

الطبيعة التاريخية لسير الشهداء:

تنقسم سير الشهداء إلى ثلاثة أنواع وذلك بحسب ظروف تسجيلها:

النوع الأول:

تأتي عبارة عن تسجيل حرفي للحوار الذي دار في المحكمة بين القاضي أو الحاكم أو الوالي وبين الشهيد، وهي عبارة عن الأسئلة التي وجهها القاضي للشهيد وإجابة الشهيد على الأسئلة كلمة كلمة كما سجلها كاتب المحكمة في السجلات الرسمية، ثم نطق الحكم بنوع العقوبة أو الموت، وهذه الوثائق كانت تستودع في الأرشيف العام للدولة، وكان ينجح كثير من المسيحيين المشتغلين بأمور المحاكمة في الحصول على صورة منها، وكانت تنقل كما هي بدون تعليق. وهذه تسمى في الأصول التاريخية بأعمال الشهداء
Acts of Martyrs = Acta Martyrum

وتعتبر هذه الوثائق بمثابة وثائق على أعظم جانب من الصحة والأهمية التاريخية.

ومن أهم النماذج لهذا النوع:

(أ) أعمال استشهاد القديس يوليوس ورفقائه سنة ١٦٥م في روما بكل دقائق المحاكمة وظروفها.

(ب) أعمال استشهاد نامفانو وميجين وسانام وستة آخرين في ١٧ يوليو سنة ١٨٠م بشمال أفريقيا.

(ج) أعمال استشهاد القديس والأسقف كبريانوس أسقف قرطاجنة في ١٤ سبتمبر سنة ٢٥٨م بشمال أفريقيا.

النوع الثاني:

وهذه كانت عبارة عن التقارير التي كان يكتبها شهود العيان و يسجلون فيها بلغتهم ما سمعوه ورأوه، وكانت تعتني بوصف آلام وتعاذيب الشهداء، وتسمى بلغة التاريخ Passions or Martyria

ومن أهم نماذج هذا النوع:

(أ) آستشهاد القديس بوليكاربوس أسقف أزمير في ٢٢ فبراير سنة ١٥٦م، وهي أول وثيقة لشهيد.

(ب) خطاب كنائس ڤينا وليون لكنائس آسيا وفريجيا تصف أعظم آستشهاد حدث في التاريخ وأعنفه في مدينة ليون سنة ١٧٧م، كما وردت في تاريخ يوسابيوس.

(ج) آستشهاد بربتوا وفيليستاس. وقد استشهدتا مع ثلاثة موعوظين وشابتين صغيرتين، وذلك في قرطاجنة في ٧ مارس سنة ٢٠٢م، وهي أبدع نموذج للأدب الإستشهادي.

النوع الثالث:

وتأتي هذه عبارة عن قصة يرويها الأسقف أو الكاهن عن ظروف الإستشهاد، وذلك لوعظ الشعب وتعريفه بظروف الشهيد، وهذه تكتب غالباً في زمن متأخر عن زمن الإستشهاد، وتسمى بلغة التاريخ Legend = أي رواية.

ومن نماذج هذا النوع:

(أ) سيرة الشهداء الرومانيين: أجنيس وسيسيليا وفيليستاس وأولادها السبعة (السبعة وأمهم) وهيبوليتس ولورنس وقزمان ودميان.

(ب) المجموعات الواردة في تاريخ يوسابيوس لشهداء فلسطين.

(ج) شهداء فارس في عهد سابور الثاني سنة ٣٣٩، وشهداء الرّها.

وفي هذا اليوم (*):

وفي هذا اليوم المبارك تعيد برية شيهيت لشهدائها الشيوخ التسعة والأربعين الذين طالما تشفعنا بهم في كل قداس.

هؤلاء هم الشيوخ الأجلاء الذين قدموا حياتهم فجأة على مذبح الحب الإلهي بيّنة على أمانة سيرتهم الطاهرة التي كانوا يكتبونها كل يوم في السموات بجهادهم وعبادتهم الخالصة النقية من حب العالم وشهوة الدنيا، فلما بوّق لهم الملاك ميّزوا صوته وأدركوا الدعوة في الحال، وكانوا على أتم إستعداد للسفر السعيد، لم يكونوا ممسوكين بشيء من معوقات هذا الدهر:

لقد خلعوا طواعية كل كرامة فانية فتأهبوا باتضاعهم المستعد للبس الإكليل الذي لا يفنى.

لقد استوفوا كل ديون الناس بالمحبة ـ كقول الرسول ـ فلم يكن في كشوف معاملاتهم ما يعوق الضمير أو يعطل السفر.

لقد افتدوا الوقت الشرير بيقظة القلب، فلم يأخذهم النعاس القاتل، ولا سقطوا كغيرهم في بالوعة الإهتمامات الكاذبة، ولا سرقهم تسويف العمر في الباطل، ولا أدركتهم ظلمة اليأس لحظة سماع البوق.

لقد جمعوا الزيت الطيب في أواني الصلاة، وأشعلوا المصابيح بنار الحب المقدس وملأوا الزق بدموع التوسل، وتأهبوا لملاقاة العريس مستبشرين ومطمئنين.

لقد أكلوا الجسد وشربوا الدم متواتراً، فحسبوا فيهما جيداً حساب الألم وأدركوا بهما سر الموت، وبلغوا فيهما يقين القيامة، فلما دعا داعي الإستشهاد ولمع السيف في يد القاتل حسبوها لحظة العمر لبلوغ الحياة والقيامة الأفضل!!

(*) ٢٦ طوبة ـ ٣ فبراير: عيد التسعة والأربعين شهيداً شيوخ شيهيت.

آخرون مثلهم هربوا من العذاب و وجلوا من رعبة الموت وصعدوا واختبأوا في الحصن، وفضلوا البقاء هنا قليلاً عن دوام الحياة هناك. أما هؤلاء التسعة والأربعون السعداء فأقبلوا على الموت وكأنه الخلاص عينه، فعُذّبوا ولم يقبلوا النجاة، لكي ينالوا قيامة أفضل، فنالوا، ونلنا من بعدهم ميراث إيمانهم ودمائهم مصباحاً لا ينطفىء نوره أمام كل الذين يحبون النور ويحبون السير وراءهم في النور إلى جيل الأجيال!

لم يدخلوا الحصن ولا اختبأوا، فصاروا هم بذاتهم حصناً وخط دفاع وقلاع إلى مئات من السنين يصدُّون بصلواتهم جحافل الظلمة عن ديرهم وعن كل من يجري إليهم و يتشفع.

من كان يظن من إخوتهم أنهم هكذا سريعاً ومن دونهم ينطلقون؟ كانوا يصلُّون معاً، وكانوا يسهرون معاً، وفي المعجن يعجنون كغيرهم، وفي المخبز يخبزون، وعلى رحى الطاحون يجلسون، وأخيراً أُخذ الواحد وتُرك الآخر!! و يا سَعْدَ الذي أُخذ، و يا لشقاء من فضَّل الشقاء!

في لحظة من لحظات النهار وفي ومضة من ومضات السيف غابت عنهم شمس النهار، وغاب الدير كله، وغابت الأرض والأسوار، وفجأة انفتحت أعينهم على أمجاد ليست من هذا الدهر، وعلى نور عجيب، إنه وجه يسوع، نهاية المطاف، فكان هو نهارهم وشمسهم وديرهم الجديد وأجرتهم السعيدة!

لقد وُزنوا جميعاً في الموازين فوُجدوا كاملين، وفُحصت الوكالة في القليل فوُجدوا جميعاً أمناء، فأخذوا في الحال تكليفاً على عشر مدن، وكان ديرنا السعيد واحداً من هذه المدن العشر.

وفي هذا اليوم المبارك نعيِّد لتذكارهم مع أنهم يعيِّدون معنا كل يوم، نخصُّهم بالحب يوماً في كل سنة؛ ويخصُّوننا هم بالحب كل أيام السنين!!

ـ ٢ ـ
النيروز رأس السنة القبطية

□□□

النيروز رأس السنة القبطية

□□□

مصر الفرعونية:

المصريون الفراعنة أول من قاسوا الزمن وأرّخوا للسنين وقسموا الشهور واستخدموا التقويم الشمسي في سجلاتهم، فقد عرفوا أن السنة ٣٦٥ يوماً تقريباً ورتبوا تقويمها بدقة وقسموها إلى شهور وكل شهر حددوه بثلاثين يوماً، كل ذلك سنة ٤٢٤٠ قبل الميلاد. ويقول المؤرخ اليوناني المشهور هيرودوت في حديثه عن مصر إن المصريين اهتدوا إلى معرفة ذلك بواسطة النجوم وإنهم تفوقوا كثيراً على اليونانيين في ضبط سنتهم الشمسية بإضافتهم خمسة أيام على مجموع الإثني عشر شهراً وسموها بالشهر الصغير حتى تبتدىء السنة في ميعادها تماماً. (١)

وهنا يجدر بنا أن ننبه ذهن القارىء أن التقويم الشمسي الفرعوني القائم على حساب النجوم هو هو بعينه التقويم الذي أخذ به العالم كله عن مصر وعملت به كل شعوب الأرض بعد ذلك.

والمعروف عن السنة القبطية الشمسية أنها كانت مقسمة أصلاً إلى ثلاثة فصول وليس إلى أربعة، كما هو حاصل الآن، وكل فصل كان أربعة أشهر كاملة، وهي فصل الفيضان ويأتي في بداية الفصول كلها، ثم فصل الزراعة، والثالث فصل الحصاد أو الثمار. ويلاحظ القارىء اللبيب أن هذا التقسيم لا يزال معمولاً به في طقس الليتورجية الكنسية حيث وضعت الكنيسة لكل فصل صلاة (أفشية) خاصة، وهى أولاً: أفشية

---

(١) هيرودوت ٢: ٤.

المياه ثم أفشية الزروع وأخيراً آفشية الثمار والأهوية. فالسنة القبطية سنة نيلية بالدرجة الأولى. أما كون السنة القبطية الشمسية تقوم في حسابها الدقيق على رصد النجوم، فهذا يستطيع أن يراقبه القارىء النشيط إذا تطلع إلى السماء في الأيام التي قاربنا فيها إلى بدء السنة القبطية، أي أول توت، حيث يرى في الأفق في أول توت ناحية المشارق قبل شروق الشمس نجماً زاهراً جداً نسميه الآن «بالشعرى اليمانية» وكان آسمه القبطي القديم «ستت»، وهو أحد أفراد مجموعة النجوم المسماه عند اللاتين بمجموعة «الكلب الكبرى» Canis Majoris (in Latin).

وكان هذا النجم موضع عشق المصريين وموضوع أناشيدهم، لأن ميعاد ظهوره في فجر ذلك اليوم كان دائماً أبداً بشيراً بحلول فيضان النيل مصدر الخيرات والحياة، لذلك سمى المصريون هذا النجم «جالب الفيضان»، وضبطوا السنة القبطية على مسار ذلك النجم وجعلوا لحظة ظهوره إيذاناً ببدء السنة. (٢)

و يعتقد المؤرخون أن أول تسجيل لهذا النجم بدأ أيام اتحاد حكومة الفراعنة الأولى في هليوبوليس سنة ٤٢٤٠ قبل الميلاد.

مصر المسيحية:

لقد ظل المصريون يحسبون أيامهم وشهورهم على تقويمهم الشمسي بلا انقطاع منذ فجر التاريخ حتى اليوم، لصلة ذلك بفلاحة الأرض المصدر الأساسي آنذاك لرزق الشعب وحياته، أما سجلاتهم المدنية فظلت متأثرة تأثراً واضحاً بنوع الحكم أو بإسم الملك الحاكم سواء كان وطنياً أو أجنبياً غاصباً، يؤرخون لحكمه أو فتوحاته، كالإسكندر مثلاً؛ إلى أن جاء الحاكم الروماني دقلديانوس الكافر الذي روع العالم بأسره ــ ومصر على وجه الخصوص ــ بعنفه واضطهاده للمسيحية فلم تنجُ بلد من بلادها إلا وتخضب ترابها بدم الشهداء، وتمادى حتى سفك دم بطر يركها القديس بطرس الأول المعروف

(2) Meyer, Ed., Aegypt. Chronol., Berlin. 1904.

بخاتم الشهداء وكان آخر من سفك دمه إبان حكمه المشئوم. فما كان من الأقباط إلا أن جعلوا سنة إعتلاء هذا الطاغية سنة ٢٨٤م مبدأ لتقويمهم! فيُقال في التاريخ القبطي مثلاً إن هذه السنة هي سنة ١٦٩٧ لدقلديانوس الكافر أو للشهداء سيان.

أما لماذا تختص مصر وحدها بجعل تقويمها يبدأ بهذه الأيام الدموية المؤلمة فهذا نعرفه عندما نقرأ لأحد آباء الكنيسة الذين عاصروا حكم دقلديانوس هذا القول: [لو أن شهداء العالم كله وُضعوا في كفة ميزان وشهداء مصر في الكفة الأُخرى لرجحت كفة المصريين].

ومعروف أن مجموع الأحكام التي أصدرها دقلديانوس بالإعدام ضد المسيحيين ونفذت بالفعل بلغت ٨٠٠,٠٠٠ حكماً. (٣)

كلمة عن دقلديانوس:

معروف أن والدي الإمبراطور دقلديانوس كانا عبدين لأحد أعضاء مجلس الشيوخ الروماني (السناتو) المدعو آنيولينوس: Anulinus وقد أسمته أمه على اسم المدينة التي وُلدت بها، ولنبوغ الولد وشجاعته نال الحرية واشتغل في قصر الإمبراطور وتدرج في الوظائف حتى وصل إلى رتبة قنصل ثم إلى قيادة حرس القصر، واشترك في حرب فارس فأظهر تفوقاً نادراً مما أجبر منافسيه على اختياره ــ وهو العبد ــ أن يعتلي عرش الإمبراطورية بعد موت نيوماريان، وقد وُصف بأوصاف نصفها يمُتُّ إلى الدناءة والخسة والرياء العميق ونِصفُها يمت إلى الشجاعة والممالأة والرقة المصطنعة. (٤)

ومعروف أنه إذا اجتمعت هذه الصفات المتعارضة في شخصية ما جعلتها من أعنف وأخطر الشخصيات! وكان دقلديانوس من عُبَّاد جوبيتر الإله الحارس للأموال! ويقول أيضاً المؤرخ جبون: [إن دقلديانوس كان ذا جَلَد مدهش على تحقيق غاياته مع مرونة في

(٣) قاموس القواميس للمونسنيور جيرين تحت كلمة «مارتير».
(٤) اضمحلال الإمبراطورية الرومانية جزء ١ ص ٢٨٦.

تنويع الوسائل وتفنن عظيم في إخضاع ملكاته وملكات الآخرين لمصلحة أطماعه، وفي صبغ هذه الأطماع بأشد الإدعاءات خداعاً مدعياً أنها من أجل العدالة والمصلحة العامة](٥). وكل هذه الصفات يستطيع القارىء القبطي أن يلمحها بسهولة في قراءة السنكسار عند تصوير طرق تعذيب الشهداء.

وقد ظل دفلديانوس يقبض على الإمبراطورية الرومانية بيد من حديد واحداً وعشرين سنة اعتزل بعدها الحكم واعتكف في مدينة سالونا بدلماشيا تسع سنوات مات بعدها عليلاً. (٦)

التأريخ للشهداء والتعييد لذكراهم:

ينبغي أن يدرك كل مسيحي أن المسيحية أولاً وأخيراً شهادة للمسيح!! «ونحن شهود له» (أع ٥: ٣٢). وكلمة «شهيد» تعني «شاهد»، وكانت تُطلق في البدء على الرسل فقط بصفتهم شهوداً لحياة المسيح وموته وقيامته(٧) كما أوصاهم الرب: «وتكونون لي شهوداً.» (أع ١: ٨)

ولكن حدث أن بدأ الرب يظهر بنفسه لكل من يتألم كثيراً بسبب الإيمان باسم المسيح وبالأخص للذين يسلِّمون للموت طواعية عن حب وهيام، وذلك في لحظة انطلاق الروح، فدُعي بذلك شهيداً كلُّ من قَبِل الموت من أجل اسم المسيح باعتبار أنه قد دخل حتماً في رؤيا فعلية لوجه الحبيب! ودخلت بذلك الشهادة للمسيح بالموت في درجة تكريم فائقة جنباً إلى جنب مع درجة الرسولية. فالشهيد يُذكر في الطقس الكنسي بعد الرسل مباشرة وقبل أعاظم القديسين حتى ولو كانت حياته قبل شهادته في درجة الموعوظين، لأن سفك الدم اعتُبر أيضاً معمودية بأعمق ما تعنيه المعمودية كصبغة وشركة في موت المسيح!!

---

(٥) جبون: جزء ١ ص ٢٨٦ و٢٨٧.
(٦) جبون: جزء ١ ص ٣٠٢ إلخ.

(7) Oxford Dictionary, p. 866.

والتاريخ الكنسي المبكر يحتفظ لنا، ومنذ القرن الثاني، بصور رائعة عن تكريم الكنيسة لشهدائها، حيث كان الطقس الكنسي يعتبر ولا يزال أن يوم الإستشهاد بالنسبة للشهيد هو يوم الميلاد الحقيقي له أي الميلاد السمائي الذي فيه يبدأ الحياة الأبدية الحقة!

وقد تمادت الكنيسة في تكريم ذكرى شهدائها إلى أقصى حد ممكن، إذ رتبت في يوم ذكرى الشهيد طقس الخدمة الكنسية كله لتكريم شهادته من تسبيح وصلاة وقراءة ووعظ، ثم تقدم الذبيحة الإلهية التي تُعتبر قمة التعبيد والتمجيد. ومعروف أيضاً أن الكنيسة منذ العصور الأولى أقامت هياكل صغيرة تحوي أجساد شهدائها، وكانت هذه الهياكل أو الكنائس تسمى باسم «مارتيريم Martyrium » أي «مكان شهادة». وهذا نقرأ عنه في سيرة أنبا مقار الكبير حينما أقام كنيسة صغيرة تضم جسدي مكسيموس ودوماديوس:

[ولما كان الآباء و«الزائرون» يجتمعون بالأب مقارة كان يأخذهم إلى قلايتها و يقول: «هلموا بنا نعاين «**شهادة**» (مارتيريم) الغرباء الصغار».]

و يلاحظ القارىء أن كلمة « **شهادة** » (مارتيريم) هنا هي ترجمة حرفية من اليونانية μαρτύριον أي « كنيسة صغيرة لذكرى شهيد». وكان هذا أقصى تكريم استطاع القديس أنبا مقارة أن يُخلِّد به ذكرى هذين الراهبين الشهيدين بغير سفك دم!

والكنيسة ما تزال حتى اليوم تعتبر شهداءها شفعاء لها يتكلم دمهم أمام الله أفضل من هابيل، وبقايا أجسادهم ذخيرة أغلى من الذهب الفاني وأكرم من كل زينة وجمال وبهاء. فالكنيسة مهما كانت صغيرة وحقيرة ولكن إن كانت تحمل جسد شهيد فهي تفتخر على أعظم كاتدرائية في العالم، حتى ولو كانت حيطانها من طين. ولكن ليس هو افتخار أسماء وأجناس و بلاد ولغات بل افتخار شهادة بالرب مختومة بالدم كقول الإنجيل: «من افتخر فليفتخر بالرب.» (١ كو١: ٣١)!!

ولقد مرت الكنيسة بزمن كانت لا تحتسب فيه أي مذبح أنه جدير بالتكريس إلا إذا كان يحوي جزءاً من جسد شهيد!! (٨)

وكان الكاهن الذي يعيَّن على مذبح شهيد يعتبر أعلى مرتبة من أي كاهن آخر وكان يسمى «مارتيرار يوس» أي خادم شهادة.

طقس الصلاة لأعياد الشهداء:

ينبغي أن يعرف القارىء أن الكنيسة النشيطة الأولى كانت تعيِّد للمسيح بالصلوات والتسابيح يومين في كل أسبوع: السبت والأحد على مدار السنة، حيث كانت تسهر السبت حتى مطلع فجر الأحد بكل مظاهر الفرح والتعييد الحقيقي ثم تكمل خدمة الليتورجيا بالذبيحة الإلهية صباح الأحد.

ولكن عدا هذين اليومين كانت الكنيسة تجتمع مرة أو مرتين كل أسبوع كما يخبرنا القديس يوحنا ذهبي الفم في عظته رقم ٤٠، وذلك للتعييد أيضاً بالسهر والصلاة والتسابيح حتى الفجر لذكرى أحد الشهداء، وتقيم الذبيحة بنفس طقس ووقاريوم الأحد. وعن هذا السهر في أعياد القديسين داخل الكنيسة يخبرنا القديس يوحنا ذهبي الفم في عظته رقم ٥٥ عن الشهداء بقوله: [لقد سهرتم بالأمس الليل كله وأكملتم كل واجبات القداسة فحولتم الليل إلى نهار، فالآن لا تجعلوا نهاركم ليلاً بالسكر والإنحلال.]

ومن الأخبار المبكرة جداً التي تصف لنا طريقة التعييد لذكرى الشهداء الخبر الذي أورده المؤرخ يوسابيوس القيصري عن بوليكاربوس الأسقف الشهيد الذي أكمل شهادته سنة ١٦٨م حيث يقول عن كنيسته سميرنا (أزمير) مركز كرسي أسقفيته: [لقد اعتزموا بمشيئة الله أن يجتمعوا حول قبره ليعيِّدوا لميلاده (أي يوم استشهاده) بفرح وتهليل لتكريم آلامه ليكون ذلك نموذجاً للأجيال الصاعدة.] (٩)

---

(8) Ibid.

(٩) يوسابيوس ١ : ١٥، Bingham Antiq., IV, p. 536.

كما يذكر ترتليان (١٦٠—٢٢٥م) طقس الكنيسة في أيامه بالنسبة لأعياد الشهداء هكذا:

[تُقدَّم القرابين عن الذين رقدوا وذلك في يوم ميلادهم كتذكار دائم ليوم استشهادهم.](١٠)

وكذلك أيضاً يوضح القديس كبريانوس الشهيد (استشهد سنة ٢٥٨م) اهتمام الكنيسة بذلك عند قوله:

[وتقدم الكنيسة الذبيحة عنهم عندما يقيمون تذكار آلامهم في أيام استشهادهم كذكرى سنوية دائمة.](١١)

وكانت خدمة الليتورجية تشمل حتماً قراءة سير هؤلاء الشهداء التي كان يوكل بها إلى الأساقفة أنفسهم ليكتبوها أو ينقحوها لتكون على المستوى الكنسي اللائق ولتأخذ صفتها الرسمية، حتى إن الكنيسة كانت لا تأخذ بالسير التي لا يصادق عليها الأسقف. ولقد سن مجمع قرطاجنة قانوناً ينظم كتابة سير الشهداء وقراءتها. (١٢)

ولقد وجدنا في إحدى المخطوطات النادرة بمكتبة دير القديس أنبا مقار مقدمة باللغة القبطية البحيرية لما ينبغي على البطريرك أو الأسقف أن يتلوه قبل أن يقرأ السيرة وكذلك ما ينبغي على القس إذا لم يكن الأسقف حاضراً، وننقلها هنا مع ترجمتها العربية لعل محبي الطقس الكنسي يُدخلونها مرة أخرى في نظام ترتيبهم الكنسي:

+ البركة التي يقولها الأب البطريرك أو الأسقف في بدء السِيَر في أعياد العذراء والملائكة والشهداء والقديسين بركاتهم تكون معنا آمين:

ϧⲉⲛ ⲫ̀ⲣⲁⲛ ⲙ̀ⲫ̀ⲓⲱⲧ ⲛⲉⲙ ⲡ̀ϣⲏⲣⲓ ⲛⲉⲙ ⲡⲓⲡ̀ⲛ̄ⲁ̄
ⲉ̄ⲑ̄ⲩ̄ ⲟⲩⲛⲟⲩϯ ⲛ̀ⲟⲩⲱⲧ ⲡⲓⲟⲩⲁⲓ ⲙ̀ⲙⲁⲩⲁⲧϥ ⲛ̀ⲧⲉ

(10) Ibid., p. 536.
(11) Ibid.

(١٢) مجمع قرطاجنة القانون رقم ٤٧.

ⲫ̀ⲙⲓ. Ⲡⲓⲁⲧⲁⲣⲭⲟⲩ ⲟⲩⲟϩ ⲡⲉⲧϫⲱⲕ ⲡⲓⲛⲓϣϯ
ϧⲉⲛ ⲡⲉϥⲥⲟϭⲛⲓ ⲟⲩⲟϩ ⲡⲓϫⲱⲣⲓ ϧⲉⲛ ⲛⲉϥϩ̀ⲃⲏⲟⲩⲓ
ⲫⲏⲉⲧϣⲟⲡ ϧⲉⲛ ⲙⲁⲓ ⲛⲓⲃⲉⲛ ⲟⲩⲟϩ ⲉⲑⲙⲟϩ ⲉ̀ⲡ-
ⲧⲏⲣϥ ⲡⲓⲑⲟⲩⲥⲁⲩⲣⲟⲥ ⲛ̀ⲧⲉ ⲛⲓⲁⲅⲁⲑⲟⲥ ⲟⲩⲟϩ ⲙ̀-
ⲡ̀ⲣⲉϥϯⲙ̀ⲡ̀ⲱⲛϧ ⲫⲏⲉⲧⲥⲁϫⲓ ϧⲉⲛ ⲡⲓⲛⲟⲙⲟⲥ ⲛⲉⲙ
ⲛⲓⲡ̀ⲣⲟⲫⲏⲧⲏⲥ ϯϯϩⲟ ⲉ̀ⲧⲁϥⲙⲉⲧⲁⲅⲁⲑⲟⲥ ⲉⲑ-
ⲣⲉϥϯⲛⲏⲓ ⲛ̀ⲟⲩϩ̀ⲙⲟⲧ ⲛⲉⲙ ⲟⲩⲛⲁⲓ ⲟⲩⲟϩ ⲛ̀ⲧⲉϥ-
ⲟⲩⲱⲛ ⲛ̀ⲛⲓⲃⲁⲗ ⲛ̀ⲧⲉ ⲡⲁϩⲏⲧ ⲛⲉⲙ ⲡ̀ⲭⲁϯ ⲉⲑⲣⲓⲉ̀-
ⲙⲓ ⲉ̀ ⲡⲉϥⲛⲟⲙⲟⲥ ⲟⲩⲟϩ ⲛ̀ⲧⲉ ⲁ̀ⲣⲉϩ ⲉ̀ⲛⲉϥⲉⲛ-
ⲧⲟⲗⲏ ⲛⲉⲙ ⲛⲉϥⲟⲩⲁⲥⲁϩⲛⲓ ⲟⲩⲟϩ ⲛ̀ⲧⲉ ϯⲱⲟⲩ
ⲙ̀ⲡⲉϥⲛⲓϣϯ ⲛ̀ⲣⲁⲛ ⲉⲑⲙⲉϩ ⲛ̀ⲱⲟⲩ ϣⲁ ⲉ̀ⲛⲉϩ
ⲁ̀ⲙⲏⲛ. ⲟⲩⲟϩ ⲛ̀ⲧⲁⲧⲁⲙⲱⲧⲉⲛ ⲱ̀ ⲛⲁϣⲏⲣⲓ ⲙ̀-
ⲙⲉⲛⲣⲓⲧ.. ⲥ̀ⲙⲟⲩ ⲉ̀ⲣⲟⲓ ⲥ̀ⲙⲟⲩ.

الترجمة:

باسم الآب والإبن والروح القدس إله واحد، الواحد وحده الحقيقي غير المبتدىء والكامل العظيم في مشورته والقدير في أفعاله، الكائن في كل مكان والذي يملأ الكل كنز الصالحات ومعطي الحياة، الناطق في الناموس والأنبياء، أتوسل من صلاحه أن يمنحني نعمة ورحمة و يفتح عيني قلبي وفهمي لأعرف ناموسه وأحفظ وصاياه ومشيئته وأمجد اسمه العظيم المملوء مجداً إلى الأبد آمين. لكي أطلعكم ياأولادي الأحباء...

ثم يقول: باركوا عليَّ باركوا...
+ وإن كان قارىء البركة قساً فلا يقول ما كتب أولاً بل يقول هذا:

ϧⲉⲛ ⲫ̀ⲣⲁⲛ ⲙ̀ⲫ̀ⲓⲱⲧ ⲛⲉⲙ ⲡ̀ϣⲏⲣⲓ ⲛⲉⲙ ⲡⲓⲡ̀ⲛ̅ⲁ̅
ⲉ̅ⲑ̅ⲩ̅ ⲟⲩⲛⲟⲩϯ ⲛ̀ⲟⲩⲱⲧ. ⲥ̀ⲙⲟⲩ ⲉ̀ⲣⲟⲓ ⲓⲥϯⲙⲉⲧ-
ⲁⲛⲟⲩⲓⲁ ϫⲱ ⲛⲏⲓ ⲉ̀ⲃⲟⲗ ⲛⲁⲓⲟϯ ⲛⲉⲙ ⲛⲉⲛ̀ⲥⲛⲏⲟⲩ
ⲉ̀ ϣ̀ⲗⲏⲗ ⲉ̀ϩⲣⲏⲓ ⲉ̀ϫⲱⲓ ⲛ̀ⲁⲅⲁⲡⲏ ϩⲓⲛⲁ ⲛ̀ⲧⲉ Ⲡ̅ⲟ̅ⲥ̅
ⲫϯ ⲡⲓⲙⲁⲓⲣⲱⲙⲓ ⲛ̀ⲁⲅⲁⲑⲟⲥ ϯⲛⲏⲓ ⲛ̀ⲟⲩⲕⲟⲩ-

ϫⲓ ⲛ̀ⲥⲱⲟⲩⲛ ⲛⲉⲙ ⲟⲩⲛⲟⲩⲥ ⲉϥⲣⲏⲥ ⲛⲉⲙ ⲟⲩϩⲏⲧ
ⲉϥⲙⲉϩ ⲛ̀ⲕⲁϯ ϩⲓⲛⲁ ⲛ̀ⲧⲁⲱϣ ϧⲉⲛ ⲡⲉϥⲛⲟⲙⲟⲥ
ⲛ̀ⲧⲉ ⲁⲣⲉϩ ⲉ̀ⲛⲉϥⲉ̀ⲛⲧⲟⲗⲏ ⲟⲩⲟϩ ⲛ̀ⲧⲉ ϯⲱⲟⲩ
ⲙ̀ⲡⲉϥⲛⲓϣϯ ⲛ̀ⲣⲁⲛ ⲉⲑⲙⲉϩ ⲛ̀ⲱⲟⲩ ϣⲁ ⲉ̀ⲛⲉϩ
ⲁ̀ⲙⲏⲛ. ⲛ̀ⲧⲁⲧⲁⲙⲱⲧⲉⲛ ⲱ ⲛⲁϣⲏⲣⲓ ⲙ̀ⲙⲉⲛⲣⲓⲧ.

الترجمة:

باسم الآب والإبن والروح القدس إله واحد، باركوا عليَّ ها ميطانية اغفروا لي، يا آبائي وإخوتي، صلوا عليَّ بمحبة، لكي الرب الإله محب البشر الصالح يعطيني قليلاً من الإدراك وعقلاً متيقظاً وقلباً ممتلئاً فهماً لكي أقرأ في ناموسه وأحفظ وصاياه وأمجد اسمه العظيم المملوء مجداً إلى الأبد آمين، لكي أطلعكم يا أولادي الأحباء...

ولكن لئلا يظن البسطاء أن تكريم الكنيسة الأرثوذكسية للشهداء يدخل في مضمون العبادة، ننقل لهم هنا رأي الكنيسة الأولى عن مثل هذا الإدعاء لما هاجم اليهود مندوبي كنيسة سميرنا عندما طلبوا جسد پوليكارپوس الأسقف الشهيد (بقايا حريق الجسد) من الوالي ليكرموا ذكراه متهكمين عليهم إنهم سوف يتركون المصلوب و يعبدون جسد پوليكارپوس. فكان رد الكنيسة:

[إننا نعبد أبن الله أما الشهداء فهم كتلاميذ الرب الذين اقتفوا آثاره فإننا نحبهم لأنهم خليقون بهذا بسبب محبتهم المنقطعة النظير لملكهم ومعلمهم، فليتنا نحن أيضاً نصبح شركاءهم وزملاء لهم في مثل هذه التلمذة. ولما رأى قائد المائة منازعة اليهود أقامه في الوسط وأحرقه كعادتهم ومن ثم جمعنا فيما بعد عظامه التي كانت أثمن من الحجارة الكريمة وأغلى من الذهب ووضعناها في مكان مناسب، هناك نرجو أن يسمح لنا الرب بأن نجتمع معاً في غبطة وانشراح لنحتفل بذكرى أستشهاده إحياءً لذكرى من سبقوا أن جاهدوا وتدريباً وإعداداً لمن سوف

يتمثلون بهم.]([١٣])

وجدير بالقارىء جداً أن ينتبه أن هذا الإحتفال الكنسي الرائع حدث سنة ١٦٨م، فكان أول وأقدم طقس كنسي وصلنا عن الإحتفال بذكرى الشهداء علماً بأن ناقل الخبر هنا هو الأسقف والمؤرخ الكنسي الشهير يوسابيوس القيصري([١٣]) ومنه نتحقق أن تكريم الشهداء جزء لا يتجزأ من حياة المؤمنين التقوية الذي كان يرتفع بمستوى إيمانهم إلى درجة الإشتعال. كما نجد أمامنا أيضاً شهادة من كنيسة الغرب جديرة بالتسجيل هنا وهي للأسقف أوستين: (وهو النطق القديم لإسم أغسطينوس) (تنيح سنة ٦٠٤م)، وهو أول رئيس أساقفة على كانتربري ومبعوث البابا الروماني غريغوريوس الكبير لتأسيس كنيسة إنجلترا يقول:

[كوننا نحيي ذكرى شهدائنا بطقوس رسمية كنسية فذلك لكي نرتفع إلى مستوى اقتفاء سلوكهم، ولكي نحسب أنفسنا شركاء معهم في ذلك النصيب والإستحقاق الذي نالوه ولكي ننال ضمناً منفعة بصلواتهم، على أننا لا نقدم عبادة أو ذبيحة لأي شهيد بأي حال من الأحوال سوى لإله الشهداء وحده، وذلك بالرغم من أننا نقيم بالفعل هياكل ومذابح بأسماء الشهداء كتذكار لهم فقط، ولم يحدث قط أن وقف كاهن يقدم لجسد الشهيد الراقد تحت الهيكل عبادة أو ذبيحة كأن يقول: لك نقدم هذه الذبيحة أيها القديس بطرس والقديس بولس أو كبريانوس، وإنما ما يقدم من عبادة وذبيحة يقدم كله للرب الإله وحده الذي يكرم شهداءه «كريم في عيني الرب موت أتقيائه».]([١٤])

□

أما رسالتنا في عيد النيروز فهي مزيد من الضوء على تقويمنا القبطي الذي يقوم أولاً وأخيراً على الشهادة للمسيح! وكأنما تاريخنا كله قصة حب للمسيح مخضبة بالدماء،

(١٣) تاريخ الكنيسة ليوسابيوس القيصري، الكتاب الرابع، فصل ١٥.
(١٤) المحاجاة ضد فوستوس ١: ٢٠ فصل ٢١.

سـنتها فـصـل مطوّل مزدحم بالأبطال يتكرر فيه ذكرهم ولا نملُّ من تذكارهم، أما يومها فهو مشهد مثير نحن فيه مصلوبون، نُصلب كل يوم ونُبعث كل يوم: «من أجلك نمات كل النهار.» (رو٨: ٣٦)!





شهيد يصلي

رسم حائطي من القرن الثاني على جدران السراديب القديمة بروما

التي كان يصلي فيها المسيحيون في العصور الأولى

ـ ٣ ـ

شهادة القديسين بطرس وبولس

نص الكلمة التي ألقيت بكنيسة القديس العظيم أنبا مقار الكبير بديره العامر ببرية شيهيت، يوم عيد آبائنا الرسل الأطهار الموافق ١٢ يوليو ١٩٧٣م ـ ٥ أبيب ١٦٨٩ش.

شهادة القديسين بطرس و بولس

□□□

اليوم تعيِّد الكنيسة لتذكار شهادة القديسين بطرس و بولس.

هذه الشهادة هي ثمرة مباشرة لحلول الروح القدس يوم الخمسين.

تذكرون قول الرب الذي سجله لنا لوقا الإنجيلي في سفر الأعمال: «لكنكم ستنالون **قوة** متى **حل** الروح القدس عليكم، **وتكونون لي شهوداً في أورشليم** وفي كل اليهودية والسامرة وإلى أقصى الأرض.» (أع ١: ٨)

إذن هذا العيد أو هذه الشهادة التي ختمها الرسولان بطرس و بولس بالدم، هي تحقيق مباشر لوعد الرب، و برهان لعمل الروح القدس.

معروف أنه يستحيل على أي إنسان أن يقول — مجرد قول — إن المسيح رب إلا بالروح القدس، فكم بالحري تتطلب الشهادة للمسيح باستعداد سفك الدم؟ يلزمنا هنا أن نتأمل طو يلاً في معنى الإستشهاد.

معنى الإستشهاد:

قد يبدو الإستشهاد بسفك الدم على آسم المسيح عملاً من أعمال الشجاعة أو البطولة أو مجرد قوة إيمان، ولكنه في الحقيقة عمل من أعمال الروح القدس المباشرة التي يطبعها في الإنسان على أساس أنه ينقل للإنسان الذي يؤمن بالمسيح صفة من صفات المسيح التي هي «وضع الذات» أو بذلها للموت: «لي سلطان أن أضعها» (يو ١٠: ١٨)، فالمسيح وضع ذاته وأطاع الآب حتى الموت موت الصليب (في ٢: ٨).

وظيفة الروح القدس الأساسية فينا هي أن ينقل لنا كل ما للمسيح، وضمناً هذا السلطان عينه أي سلطان المسيح على ذاته: «لي سلطان أن أضعها»، فكما وضع المسيح ذاته على الصليب وأطاع الآب حتى الموت ــ و بذلك أصبح موت المسيح هو مجد ذاته طاعة للآب و بالتالي صورة وشهادة لتمجيد الآب ــ هكذا تماماً ينقل لنا الروح القدس هذه الصفة الأساسية التي كانت للمسيح وهي سلطان وضع الذات و بذلها للموت طاعة وشهادة لمجد المسيح والآب.

والمسيح لما وضع ذاته وأسلم نفسه للموت طاعة للآب، لم يكن يطلب بالصليب مجد نفسه بل مجد الآب، لأن الصليب بحد ذاته إخلاء وفضيحة ومهانة، بل ولعنة في أشد حالاتها.

ولكن الذي ينبغي أن ننتبه إليه جيداً هو أن وضع الذات وبذلها بالصليب، لم يأتِ فجأة في حياة المسيح، فقبل إخلاء الذات من الكرامة البشرية وقبول فضيحة الصليب، سبق أن أخلى المسيح ذاته من مجد الألوهة عندما قبل أن يتجسد في صورة إنسان كعبد من عبيد الله!

إذن الإخلاء تم على مستويين في المسيح:
الأول: سري داخلي وخاص جداً على مستوى الله.
والثاني: علني وعمومي وعلى مستوى الناس بالصليب.

هكذا تماماً في موهبة الإستشهاد العلني بالنسبة لنا، لا يمكن أن نتهيأ لها فجأة و بدون مسبقات، بل يلزم بالضرورة أن يكون الروح القدس قد جاز بالإنسان إخلاءً سرياً داخلياً في أعماق الحياة مع الله، إخلاء يبلغ فيه الإنسان أولاً إلى رفض كل مجد وكرامة تكون من اختصاص الإلهيات والمقدسات، التي نسميها اليوم كرامة الكهنوت أو القديسين، حيث يعيش المؤمن بإحساس العبد المرفوض والمتألم أي نفس الإحساس الذي عاشه المسيح:

«هوذا عبدي يعقل يتعالى و يرتقي و يتسامى جداً، كما اندهش منه كثيرون، كان منظره هكذا مفسداً أكثر من الإنسان وصورته أكثر من بني آدم... لا صورة له ولا جمال فننظر إليه ولا منظر فنشتهيه، محتقر ومخذول من الناس، رجل أوجاع ومختبر الحزن، يخفون وجوههم عنه، محتقر فلم نعتدّ به... ونحن حسبناه مضروباً من الله ومذلولاً!... ظُلم أما هو فتذلل ولم يفتح فاه.» (إش ٥٢و٥٣)

هنا وعلى هذه الحال من الرفض والمهانة، وبهذا الإخلاء الداخلي أمام الله وكما من الله، يمكن أن يأتي إخلاء الذات على الصليب، ويحتمل الإنسان عار الموت العلني وفضيحة التعذيب حتى الموت حيث تغذي الشهادة الداخلية الشهادة الخارجية.

ولكن الصليب لا يمكن أن يتركب على كرامة، فالشهادة للمسيح من خلال الفضيحة والتعذيب وسفك الدم يستحيل أن يقبلها إنسان متمسك بذاته وكرامته.

سر احتمال الصليب وقبوله بفرح، يكمن في الحياة التي تسبقه. الشهادة للمسيح بسفك الدم تتجمع قوتها وإمكانياتها من اتضاع الحياة السابقة. فموت الذات بسفك الدم يلزم أن يسبقه إنكار الذات بالخضوع لكل تأديبات الله.

عمل الروح القدس في الإستشهاد:

حينما ينقل لنا الروح القدس قوة عمل المسيح في الإخلاء الذي هو تمهيد الصليب، ثم في إنكار الذات وبذلها حتى الموت بسفك الدم الفعلي على الصليب ــ ينقلها إلينا و يغرسها في طبيعتنا الجديدة لا كأنها أعمال غريبة عن الروح القدس بل هي كعمل من صميم إختصاص الروح القدس، ومناسبة أشد المناسبة لصفاته الخصوصية!! فالروح القدس يعمل فينا وهو في حالة إخلاء لذاته أيضاً بل وإنكار لذاته على أعلى مستوى، فالمسيح يصف عمله لنا وفينا هكذا: «**لأنه لا يتكلم من نفسه** بل كل ما يسمع يتكلم به... **ذاك يمجدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم.**» (يو١٦: ١٣و١٤)

ويمكن تشبيه الروح القدس بالتلسكوب الذي يكشف لنا أسرار السماء و يقنعنا

بحقيقتها دون أن يكشف نفسه هو، فعندما نضع عيننا على التلسكوب نرى السماء في الحال بكل وضوح وجمال ومجد، دون أن تقع عيننا على شيء من تركيب التلسكوب، أو يتدخل التلسكوب في إضافة أو حذف أي شيء من حقيقة النجم الذي نرصده... بل ونقتنع أن عيننا هي التي ترى مباشرة كل مجد السماء، إذ لا ترى أي أثر لهذا الوسيط الذي يتوسط بين عيننا و بين السماء!! حيث ينحصر عمل التلسكوب في أنه يكشف مجد السماء لعين الإنسان وحسب!!

الروح القدس يعمل هكذا: يمجد المسيح دون أن يتمجد هو لأنه يخلي ذاته: «لا يتكلم من نفسه»، «ذاك يمجدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم».

حالة الإخلاء الكلي التي يعمل من خلالها الروح القدس فينا والتي هي من صميم صفاته الأقنومية، تؤثر فينا تأثيراً مباشراً ومشابهاً، فتلغي إحساسنا البشري وتتجاوز منطقنا العقلي، لنرى المسيح في حقيقة ذاته الإلهية، و بالتالي تنكشف لنا آلامه الخلاصية على الصليب في صميم دوافعها الإلهية الكريمة والمجيدة، فنتحقق فيها أمرين خطيرين للغاية: **الأول** حب الآب لنا في بذل ابنه، **والثاني** حب الإبن للآب ولنا في طاعته حتى الموت من أجلنا!!

هذا يكشف لنا أهمية الصفة العجيبة التي هي «**الإخلاء**»: «لا يتكلم من نفسه، ذاك يمجدني»، التي يباشر بها الروح القدس عمله فينا للرؤيا الإلهية الصافية، ولمعرفة الحق الإلهي الخالص لشخص يسوع المسيح والآب. إذ أن هذه الصفة ليست في الواقع لازمة للروح القدس في ذاته بقدر ما هي لازمة لنا في ذواتنا لإمكانية الرؤيا الصافية ومعرفة الحق الخالص من شوائب الفكر والمنطق البشري. فالإخلاء من الذات ومن المنطق البشري والقياسات العقلية لازم لنا أشد اللزوم حتى نستطيع أن نرى الإلهيات في عمل المسيح، ونصدق الحق في كلمة الله، ونفهم منطق الله في الصليب، ونقبل مواهب الله الفائقة المجانية التي بلا حساب و بلا كيل والتي حصل عليها المسيح لنا من الله الآب بدمه!

أما بدون الروح القدس فلا يمكن أن نرى المسيح إلا «رجل أوجاع ومختبر الحزن، مضروباً من الله ومذلولاً»، ولا نرى الصليب إلا «جهالة» و«عاراً» و«لعنة»! لأننا نرى ذلك من خلال إحساسنا بذاتنا وخضوعنا لمنطقنا العقلي. أما بتوسط الروح القدس أو بالحري من خلال الملء بالروح القدس، فنحن نرى المسيح (مع إستفانوس الشهيد) جالساً عن يمين الآب في السموات، كما نرى الصليب (مع بولس الرسول) قوة الله للخلاص الذي به استُعلن مجد المسيح والآب! أي أن الروح القدس يعطينا أن نرى المسيح ونفهم عمله بصورة من المجد حتى على الصليب لا يمكن أن تُرى بالعين البشرية أو تُفهم بالعقل البشري.

ولكن تشبيهنا لعمل الروح القدس فينا بالتلسكوب، يظل بعد كل هذا تشبيهاً ناقصاً، لأن التلسكوب بالرغم من أنه يرينا الشيء بصورة واضحة جداً وممجدة جداً، إلا أن هذا الشيء يظل ببعده عنا كما هو، فيوهمنا أننا على بعد خطوة من الشيء مع أننا نكون على بعد مئات الأميال. ولكن الروح القدس لا يرينا المسيح من على بعد، ولا يكشف لنا حقيقة الصليب كعمل آخر خارج عنا، الروح القدس ينقلنا عبر نفسه إلى المسيح وينقل المسيح إلينا عبر نفسه أيضاً، فيصير أو يحل المسيح في قلبنا بالروح القدس، ونصير نحن في قلب المسيح بالروح القدس أيضاً.

الروح القدس يختزل ـــ بإخلائه الفعلي لذاته وبطبيعته القدوسة ـــ المسافة الروحية مع كل الأجواء المعاكسة التي تفصلنا عن قداسة المسيح؛ أو على وجه أصح يلغيها تماماً بإخلائه العملي لذاته وبقوة قداسته الفائقة، فلا يعود شيء قط يفصلنا عن المسيح، لا خطية ولا عجز ولا موت ولا أية قوة معاكسة شريرة أيًّا كانت. بل وإن الروح القدس يصنع من ذاته عملاً خِلْقياً جديداً فينا (خليقة جديدة من ذاته) يجعلنا بها مؤهَّلين في الحال للإتحاد بالمسيح، فيصير موت المسيح موتنا، وقيامته قيامتنا، وحياته حياتنا، وجلوسه عن يمين الآب جلوساً لنا، ومجده أيضاً مجدنا!! ننظر إليه فنرى أنفسنا، ونعرفه فنعرف أنفسنا، لأننا بواسطة الروح القدس نتحقق أننا «من لحمه وعظامه» وأن

«المسيح نفسه يحيا فينا» .

الروح القدس يختزل كل حاجز يفصلنا عن المسيح ، و يلغي كل ما يعوق الإتحاد ، سواء كان هذا العائق زمنياً أو مكانياً أو كيانياً أو خِلْقياً أو نفسياً أو عقلياً من أي نوع . ففي ملء الروح القدس أرى نفسي في الحال ـــ بكل ثقة و بلا حاجة إلى أي تفكير أو برهان ـــ أني مع المسيح صُلبتُ ومع المسيح قمت ومع المسيح أجلس في السماو يات!! لا كأني أحصل على هذا ببري أو بطهارة يدي أو قلبي ، ولكني أحصل على كل ما حصل عليه المسيح لأجلي ، بتوسط الروح القدس الذي يلغي أي عائق و يتجاوز أي حاجة إلى برهان أو منطق! إنها رؤ يا من خلال الروح القدس مفرحة ، وواقع مشبع معاً ، هبة وحق معاً ، حياة وشهادة معاً ، خبر وإيمان معاً !

إذن ، ما هو صليب بطرس و بولس في هذا اليوم المبارك إلا فعل من أفعال الإمتلاء من الروح القدس ، الذي أكمل فيهما عملاً من أعمال طبيعته الفائقة وهو الإخلاء لحساب مجد المسيح؟! هذا الذي جعل هذين الرسولين الكريمين يقبلان سفك الدم باعتبار أنه أعلى حالات الإخلاء أو إنكار الذات كشهادة لمجد المسيح على مستوى صليب الرب الذي بذل عليه نفسه لمجد الآب!! الروح القدس كان يشهد فيهما بإلحاح ـــ منذ يوم الخمسين ـــ لموت الرب المحيي ، وكانا هما يشهدان أيضاً بذلك و باستمرار، لذلك جاء سفك دمهما ختماً صادقاً لشهادة الروح القدس فيهما ، وشهادتهما بالروح القدس لمجد المسيح الحي ، حسب وعده!!

كيف نعيِّد روحياً لتذكار سفك دم بطرس و بولس ؟

الحقيقة أن صوم الرسل بأكمله يُعتبر عيداً متصلاً لعمل الروح القدس في الكنيسة ، فهو عيد الخدمة والصلاة المتواترة من أجل إرسال الفَعَلة إلى الحصاد ، وتكريس الكهنة الذين وعد بهم الرب قديماً على لسان النبي إرميا في العهد القديم قائلاً : «وأعطيكم كهنة حسب قلبي فيخدمونكم بالمعرفة والفهم .» (إر٣: ١٥)

أما سفك دم بطرس و بولس على أسم المسيح في هذا اليوم، و بعد خدمة طويلة مثمرة للغاية، فهو تمجيد رسمي قدمته الكنيسة لشخص الرب. فكما كان سفك دم المسيح على الصليب أول تمجيد للآب تم على الأرض بشهادة الطاعة المطلقة والحب الأمين حتى الموت، هكذا قدم الرسولان بطرس و بولس شهادتها للمسيح في ملء طاعة الروح القدس الناطق فيهما لحب المسيح ومجده، فتم فيهما وبهما وعد الرب بإرسال «روح الحق الذي من عند الآب ينبثق فهو يشهد لي، وتشهدون أنتم أيضاً.» (يو١٥: ٢٦و٢٧)

و ينبغي أن ندرك أن سفك دم الرسولين العظيمين بطرس و بولس معاً وفي يوم واحد، هو أعلى ذوكصولوجية حب قدمتها الكنيسة لشخص المسيح، لا على مستوى اللحن والترتيل، كما يفعل المحترفون في هذه الأيام، ولكن على مستوى إنكار الذات و بغضة النفس وقبول حكم الموت والرفض والتعذيب والقطع من أرض الأحياء، بلا خوف أو انزعاج أو ندم أو نظر إلى الوراء!

المسيح اليوم، وفي ذكرى أستشهاد الرسولين بطرس و بولس، طالب مثل هذه الذوكصولوجية الصادقة الأمينة باستعداد صبغة الدم. الرب يطلب لحن إنكار الذات بإحساس الصليب، بموت المشيئة، بنية رفض كل حياة لمجد الناس والجسد.

فمن ذا الذي يعيِّد اليوم بالروح القدس لموت بطرس و بولس على آسم المسيح، إلا الذين لم يحبوا حياتهم حتى الموت؟! يعيشون سهارى متيقظين في كل لحظة كما كان بطرس على استعداد «**لأية ميتة كان مزمعاً أن يمجد بها الله**» كما سجل له يوحنا الرسول في إنجيله (يو٢١: ١٩)، كوعد الرب له.

إذن ومن قول الرب لبطرس يتضح جلياً أن **تمجيد الله** يرتفع ليس بارتفاع طبقة اللحن من الحناجر المتقنة الحفظ، بل بارتفاع أنين الألم والظلم وعنف الإضطهاد حتى الموت. «تمد يديك وآخر يمنطقك (أو يربطك) ويحملك **حيث لا تشاء**. قال الرب هذا مشيراً إلى أية ميتة كان بطرس مزمعاً **أن يمجد بها الله**.» (يو٢١: ١٨و١٩)

نعم هذا هو لحن عيدنا اليوم، أيها الأحباء، وهذا هو تصميم تمجيدنا لله والمسيح، أن نكون في هذه اللحظة وكل لحظة آتية، باستعداد الشهادة للمسيح بملء الضمير بكل إخلاص النية، بكل عزم، باستعداد إنكار الذات حتى الدم، هذا الذي لا يمكن أن نبلغه إلا بملء الروح القدس. آمين.

ـ ٤ـ

تكريم الشهداء في الطقس الكنسي

□□□

تكريم الشهداء في الطقس الكنسي

□□□

دخل تكريم الشهداء كعنصر من العناصر المؤثرة في الطقس الكنسي منذ العصور الأولى، ليس بمجرد قراءة السيرة أو بالتسبيح، بل وفي صميم الليتورجيا. إذ كانت تقام الإفخارستيا خصيصاً باسم الشهداء، حيث يعقبها مباشرة الأغابي الكبرى التي كانت تسمى «الأنامنيسيس ἀνάμνησις» أي التذكار، وفيها يعيّد المؤمنون عيداً مبهجاً للغاية لذكرى القديس باعتباره شاهداً للمسيح ولصدق وعد الرب يوم صعوده إلى السماء: «وتكونون لي شهوداً في أورشليم واليهودية والسامرة وإلى أقصى الأرض ἔσεσθέ μου μάρτυρες » (أع ١: ٨)، حيث كانت قيمة الشهداء الروحية في الكنيسة تستمد قوتها واحترامها وتأثيرها الشديد في النفوس بسبب **«الشهادة»**، لأن الشهادة للمسيح كانت منذ الرسل أعظم وأجلّ الأعمال التي يمكن أن يقوم بها الإنسان في حياته كلها.

والرسل هم أول الشهداء الذين سلموا الإيمان كاملاً، كل ما رأوه وسمعوه من المسيح، بكل أمانة وشجاعة. ولما طولبوا بالشهادة تحت تهديد الموت، شهدوا بلا تردد أو جزع أو خوف، وماتوا.

والذين تسلموا الإيمان من الرسل، سلموه أيضاً هكذا تحت السيف أو من خلال التعذيب حتى الموت.

وهكذا انتقل الإيمان بالمسيح عبر الإستشهاد المتواتر، لذلك أصبح الإستشهاد وأصبح تكريم الشهداء جزءاً حياً من صميم الإيمان بالمسيح!!

وقد سبق أن قلنا في إحدى مقالاتنا عن الإستشهاد(*) أن الشهادة للمسيح إنما تخرج من ملء روحي، فالروح القدس هو الذي ينطق في فم الشهيد في تلك الساعة حسب وعد الرب: «لأن لستم أنتم المتكلمين بل الروح القدس» (مر١٣: ١١). لذلك فإن حصول الشهادة كاملة تحت تهديد الموت إنما هو علامة وبرهان أكيد على **أن الروح القدس هو الناطق**، وبالتالي أن الشهيد في هذه اللحظات يكون في حالة ملء كامل من الروح القدس. من أجل هذا احتُسب الشهيد في الكنيسة بدرجة نبي!! وسفر الرؤيا يؤكد ذلك «فإن شهادة يسوع هي روح النبوة.» (رؤ١٩: ١٠)

والكنيسة في تكريمها للشهداء الآن، والذي كان في العصور الأولى بدرجة حارة جداً، إنما ينبع فينا من حالة رؤيوية ومن إيمان يستشف اللامنظور ورجاء يعيش في عمق السماء. فالشهداء قائمون في السماء، بحسب رؤيا القديس يوحنا، جالسون مع المسيح يملكون في الحياة، يحكمون ويدبرون الكنيسة بقدر ما أعطاهم المسيح من مجد وسلطان!! «ورأيت عروشاً فجلسوا عليها وأُعطوا حكماً، ورأيت نفوس الذين قتلوا من **أجل شهادة يسوع** ومن أجل كلمة الله والذين لم يسجدوا للوحش ولا لصورته ولم يقبلوا السمة على جباههم وعلى أيديهم، **فعاشوا وملكوا مع المسيح** ألف سنة» (رؤ٢٠: ٤و٥)، أما الألف سنة هذه فهي بحسب إيمان الكنيسة ما نحياه الآن.

إذن، فتطلُّع الكنيسة الحار نحو الشهداء كلٌّ باسمه، سواء بالقراءة أو بالتسبيح أو بالليتورجيا وكأنها في عيد حقيقي، إنما هو ينبع من صلة رسمية وليس تفضلاً من الكنيسة على الشهداء! فالشهداء يملكون في الكنيسة ويترأسون فيها وقد اشتروا مواضعهم فيها بدمائهم، غير أنهم لم يقيموا أنفسهم في هذه الكرامة بل المسيح هو الذي أقامهم وأجلسهم معه وأعطاهم نصيباً في ملكه!!

إذن، فالقراءة لهم من داخل الخدمة الإلهية والتسبيح بأعمالهم وأسمائهم في

(*) مقالة: «شهادة القديسين بطرس وبولس» — ص٥١ من هذا الكتاب.

الليتورجيا حق لهم ولنا، وليس تفضلاً منا عليهم، فهم قائمون معنا يترأسون خدمتنا وتسبيحنا وليتورجيتنا يشتركون في كل ما نقدمه للمسيح، ولكن ليس في حالة تغرب وخوف مثلنا، بل كأرواح مبررة كملها المسيح بكل كمال وبمجد كأبهى جزء في صفوف الكنيسة: «لقد أتيتم إلى جبل صهيون وإلى مدينة الله الحي أورشليم السمائية وإلى ربوات هم محفل ملائكة وكنيسة **أبكار مكتوبين** في السموات وإلى الله ديان الجميع **وإلى أرواح أبرار مكمَّلين** وإلى وسيط العهد الجديد يسوع وإلى **دم** رش **يتكلم** أفضل من هابيل.» (عب١٢: ٢٢—٢٤)

ولكن لا يظن أحد أن هذا المجد وهذه الكرامة التي ينالها الشهيد، والتي نرفعها ونعلّيها في الكنيسة بالفرح والتهليل كأعلى عمل وخدمة، شيء هيِّن. فالشهادة للمسيح تحت تهديد السيف والعذاب أمر مهول، لا بسبب هول الموت أو مرارة التعذيب، بل بسبب ضرورة ارتفاع النفس فوق كل مغريات الحياة ومسرات الدنيا وعشرة الأهل والأصدقاء والأعزاء. فالشهادة للمسيح حب لا يقف إزاءه أي حب آخر في العالم، لا أب ولا أم ولا أخ ولا أخت ولا ابن ولا ابنة ولا زوج ولا زوجة ولا أي شيء كان ما كان.

فلكي يشهد الشهيد للمسيح تحت تهديد الموت و يغلب هذا العالم، يلزمه أن يُخضع كل عاطفة وكل حب وكل واجب وضرورة تحت حكم البغضة، حتى حياته ذاتها: «وهم غلبوه بدم الخروف و بكلمة شهادتهم **ولم يحبوا حياتهم حتى الموت**، من أجل هذا افرحي أيتها السموات والساكنون فيها.» (رؤ١٢: ١١)

فإن كانت السموات تفرح وكل الساكنين فيها بالشهيد الغالب، فكم وكم بالحري يكون فرح الكنيسة؟

وإن كانت شهادة الشهيد تصير أنشودة تهليل لدى كل السمائيين، فكم يكون على الكنيسة أن ترتب أناشيدها لهم؟

ولكن لا يأتي حب الشهيد للمسيح من فراغ، فلكي يحب يلزم أن يبغض أولاً، ولكي يستطيع أن يبغض أولاً أباه وأمه وأخاه وأخته وابنه وابنته وزوجته ليصير أهلاً لحمل صليب المسيح و يتبعه كنصيحة الرب (لو١٤: ٢٦)، يلزم أن يهزم في نفسه الخوف... كل خوف! الخوف من كل ما يقال ومن كل ما يُعمل بواسطة أي إنسان أو شيطان «أما خوفهم فلا تخافوه»، «لا تخف البتة»، «**أنا هو، لا تخافوا.**» (١بط٣: ١٤، ورؤ٢: ١٠، مت١٤: ٢٧)

الشهيد يطرح الخوف، لأن المسيح حقيقته العظمى والوحيدة التي أمسك بها. يشهد له لأن عينيه مثبتتان عليه وحده فقط، وفمه ينطق باسمه، وقلبه لا ينبض بحب آخر سواه!!

إن غلبة الشهيد للخوف هي بعينها غلبة كل شهوة وكل العالم معاً. هذه الحقيقة التي طالما ترنم بها أغسطينوس: [وقفت على قمة العالم حينما أحسست في ذاتي إني لا أخاف شيئاً ولا أشتهي شيئاً].

وهكذا يتضح لنا أكثر فأكثر عنصر الشجاعة الإيمانية التي تسلمتها الكنيسة من الشهيد، كتراث كريم ومكرم، لا شجاعة بأس وقوة على النضال، بل شجاعة بغضة ذات، وقدرة على هزيمة الخوف، والإرتفاع بحب المسيح فوق كل حب.

لذلك أصبح التمجيد للشهيد في الكنيسة باللحن والليتورجيا هوتكريم لإيمان حي شجاع أعظم ما تكون الشجاعة ورثته الكنيسة كقوة فعالة مذخرة في صميم كيانها، إيمان توزعه على أولادها في كل عيد، إيمان يقوم على بغضة الذات وهزيمة كل خوف وارتفاع بحب المسيح فوق كل حب.

أما هذه الشجاعة الإيمانية المذخرة في شهادة الشهيد والتي تفتخر بها الكنيسة وتعيد لها، فقد أسس المسيح كل متطلباتها في قلب كل من يأتي إليه و يؤمن به بإخلاص حينما قال مسبقاً: «**فانظروا إلى نفوسكم لأنهم سيسلمونكم إلى مجالس وتُجلدون في مجامع**

وتوقفون أمام ولاة وملوك من أجلي شهادة لهم. و ينبغي أن يُكرز أولاً بالإنجيل في جميع الأمم. فمتى ساقوكم ليسلموكم، فلا تعتنوا من قبل بما تتكلمون ولا تهتموا. **بل مهما أعطيتم في تلك الساعة فبذلك تكلموا لأن لستم أنتم المتكلمين بل الروح القدس.»** (مر١٣: ٩-١١)

هذه الشهادة النابعة من نفس شجاعة: «فانظروا إلى نفوسكم»، وهذه الشهادة المصوغة بالروح القدس على أفواه الشهداء، هي هي الآن مجد الكنيسة وفخرها، هي تسبيحها وهي فرحتها وقوتها.

أما كل المواقف الصعبة التي وقفها الشهداء بكل صنوف أهوالها المرعبة فقد دبرها الروح القدس بكل عناية وصمم ونفذ مشاهدها وشهودها على مرأى من الملوك والعظماء والقادة وكل نفس قاسية وظالمة، حتى تغطي شهادة الشهيد أعظم وأكبر دائرة بين نفوس بني البشر!! وحتى يغطي دم الشهيد أكبر مساحة من تربة الكنيسة، من داخل ساحات القصور وملاعب اللهو والمجون العتيدة أن تكون كاتدرائيات المستقبل حاملة أسماء شهدائها الأبطال!!

ولكن في ذكرى الشهداء لا ينبغي أن ننسى موقف المعترفين «**أو مولوجيتيس**»، فهم شهداء أيضاً، وإن كانت شهادتهم لم تبلغ حد سفك الدم. وقد كانت الكنيسة الأولى لا تفرقهم عن الشهداء، كرامة ومجداً، إذ كانت تحسبهم «**شهداء أحياء**». ونجد في أقوال القديس كبريانوس والعلامة ترتليان كلمة «شهيد» تُطلق على المعترف بدون أي فارق. وقد أحلتهم الكنيسة موضع الشهداء تماماً ووضعتهم في طقس الإكليروس من حيث الرتبة الطقسية الكنسية بكل مميزاتها، فكانوا يقفون في صفوف الشمامسة الرسميين، وكثيراً ما سُمح لهم بكرامة الكاهن وحقوقه.

وقد جاء في التقليد الرسولي للقديس هيبوليتس ما نصه:

[فإذا كان المعترف قد جاز السجن والقيود من أجل «الإسم المبارك»، فلا

ينبغي أن توضع عليه اليد حتى ينال الشموسية أو القسوسية، بل يحسب كحقيقة مسلم بها Ipso facto في درجة القسوسية بسبب اعترافه، بدون رسامة أو وضع يد.](١)

وقد ازدحم القرن الرابع بهؤلاء المعترفين الذين أكملوا شهادتهم ولم يقدّموا للموت بل جازوا السجن والتعذيب فقط. وقد رفعت الكنيسة معظمهم إلى درجة الأسقفية بعد انقضاء الإضطهاد أيام دقلديانوس.(٢)

كما أن هناك وجهاً آخر من أوجه تكريم الكنيسة للمعترفين احتفظ لنا به التاريخ، فقد كان من حق كل معترف أن يتشفع في أي مذنب واقع تحت العقوبة الكنسية، فتُرفع عنه في الحال، مهما كانت هذه العقوبة حتى ولو إلى جحد الإيمان تحت الخوف. إذ كان يكفي أن يقدم المعترف ملتمساً إلى أسقف الكنيسة مع توصية برفع العقوبة عن المذنب، فترفع عنه باحتساب أن آلام المعترف تضاف لحساب المذنب لتوفي كل العقوبة الموضوعة عليه!!(٣)

ثم قياساً على ذلك، يمكننا أن نتصور مدى جدارة روح الشهيد في التشفُّع عن المذنبين!! لذلك كان الناس يتبارون في غمس ملابسهم في دم الشهداء والإحتفاظ بها كبقايا تقام عليها التذكارات السنوية مع الصلوات والإبتهالات في عدة كنائس معاً.

وقد ظلت رتبة الشهداء والمعترفين في الطقس الكنسي أعلى من أي لقب كنسي آخر. وعندما أراد غريغوريوس النزينزي تكريم القديس أثناسيوس الرسولي بابا الإسكندرية في خطبته الجنائزية، فإنه فوق كونه صار مكملاً في المجد، اعتبره في رتبة المعترفين بسبب الإضطهادات والمحن التي أصابته من الآريوسيين واليهود والوثنيين،

(1) Hippolytos, ap. Trad. X.1., 82; Greg. Dix, Shape of Lit., p. 373.
(2) Greg. Dix, op. cit., p. 373.
(3) J. A. Youngmann, The Early Liturgy, p. 176.

حيث رتبة المعترفين هي في الكنيسة أعلى من كل رتبة الأساقفة أو مواهبهم اللاهوتية. (٤)

وتُعتبر الكنيسة القبطية أنها أولى كنائس العالم في تقنينها رسمياً للشهداء والمعترفين والقديسين النساك العظام وتضمين الليتورجيا تذكارهم وأسماءهم والتشفع بصلواتهم، وذلك منذ القرنين الثالث والرابع.

وقد تبعتها كنيسة أورشليم، حيث لدينا ما يثبت أن أسماء الأنبياء والرسل بُدىء بتذكارهم في صلوات الإفخارستيا منذ سنة ٣٤٨م ومعهم الشهداء المحليون لفلسطين!!

وفي نفس هذا التاريخ تقريباً بدأت روما بتذكار القديسين بطرس و بولس اللذين استشهدا على أرض روما. وتحدد تاريخ عيدهما منذ ذلك الزمان في ٢٩ يونية، غير أن هذا ليس عيد آستشهادهما بل عيد نقل رفاتهما من قبرهما الموجود بالفاتيكان على طريق أوستيا، إلى مكان آخر أكثر أمناً في أقبية القديس سباستيان تحت الأرض. وكان ذلك في أيام دقلديانوس. (٥)

علماً أن أول وأقدم وثيقة يحتفظ لنا بها التاريخ عن الإحتفال بتذكار شهيد هي من آسيا الصغرى. لأن القديس بوليكار بوس استشهد حرقاً في ٢٣ فبراير سنة ١٥٥م. وقد أرسل جماعة المؤمنين في سميرنا خطاباً إلى الكنائس المجاورة يخبرونهم فيه عن هذا الحادث بعنوان: «آستشهاد بوليكار بوس». ولا يزال هذا الخطاب محفوظاً إلى الآن، وفيه يخبرون كيف جمع المؤمنون بقايا الجسد والعظام وخبأوها في مكان أمين كأفضل ما تكون الجواهر. وأضاف الخطاب يقول:

[ونحن نأمل أن يسمح لنا الرب أن نجتمع معاً بالفرح والتهليل لنقيم تذكار **ميلاده الذي هو آستشهاده:** τὴν τῆς μαρτυρίας ἡμέραν γενέθλιον

(4) Hippolytos, ap. Trad. X.I., 82; Greg. Dix, Shape of Lit., p. 373.
(5) Greg. Dix, op. cit., p. 370.

كذكرى حية لمن حارب وغلب ولمن سيحارب أيضاً في المستقبل.](٦)

ولكن هذا لا يعني أن الخدمة الكنسية الرسمية، أي الإفخارستيا، شملت شيئاً من هذا التذكار، وإنما كانت الإجتماعات في هذه الأزمنة المبكرة جداً لمجرد قراءة سيرة الشهيد وإقامة وليمة المحبة.

وبعد آسيا الصغرى تصلنا شهادة مبكرة أيضاً من شمال أفريقيا. في سنة ١٨٠م تسجلت أعمال شهداء هذه المنطقة، وأيضاً شهداء صقلية في نفس هذا التاريخ، ثم بعد ذلك بقليل سنة ٢٠٢م يسجل التاريخ أجمل أعمال الإستشهاد في قصة آستشهاد القديستين پرپتوا وفيليستاس.

ثم يأتي بعد ذلك في الترتيب شهداء روما. في حوالي سنة ٢٥٠م بُدىء بتذكار بعض أساقفة روما الشهداء مثل كالليستوس وبونتيانوس وفابيان والقس هيبوليتس. أما أول الشهداء الذين بدأت كنيسة روما بتذكارهم في ليتورجيتها فهو الشماس لورنس. وفي ذلك التاريخ أيضاً بُدىء بتذكار العذارى الشهيدات في روما آنا وسيسيليا، وبعد ذلك تنبهت الكنيسة فوضعت أول تذكار لأميري شهدائها بطرس وبولس في نهاية القرن الثالث.

ولكن تعتبر سنة ٣١٣م البداية العظمى في كل كنائس العالم لتأسيس طقس تكريم القديسين، وهي السنة التي خرج فيها «**منشور ميلان**» بإنهاء عصر الإضطهاد، الذي كان بمثابة إعلان انتصار الكنيسة بدم شهدائها على وثنية العالم، حيث جاء الإعلان أعترافاً علنياً بعدم قدرة أعظم دولة في العالم على إسكات صوت الكرازة بالحديد والنار.

وقد بدأ الطقس الكنسي في تكريم الشهداء في القرن الرابع بتحويل قبور الشهداء التي كانت تسمى إما Cellae أو Martyrium (ويلاحظ أن كلمة

---

(6) Martyrium Polycarpi, cited by J. A. Youngmann, in Early Liturgy, p. 177.

Cellae هي هي «قلاية» الراهب الآن. وقد اختير أسم «قلاية» «سيللا» لتكون للراهب مكان شهادته الدائمة!!)، حيث كان يجتمع المؤمنون في ساحتها الصغيرة (حوش صغير عبارة عن سرداب تحت الأرض) لإقامة التذكار السنوي، وأحياناً لإقامة القداس ورفع القرابين خلسة بعيداً عن أعين الحكومة الرومانية وجواسيسها.

ثم بُدىء بعد القرن الرابع بتحويل هذه القبور ذات الساحات الصغيرة إلى كنائس فخمة كلها على الطراز «الباز يليكي». ففي روما أقام الإمبراطور قسطنطين بنفسه باز يليكا القديس بطرس على الفاتيكان، و باز يليكا القديس بولس على طريق أوستيا... و بعد ذلك مباشرة ظهرت باز يليكات الشهداء المشهورين على مدى القرنين الرابع والخامس تكريماً للشهداء كرنيليوس ولورانزو وأغينيس (الشهيدة) وسلفسترو وفلنتيانو وسبسطيانو ونيكرازيو واستفانو ونيريو وأخيلو.

وكانت كل هذه الكنائس في خارج المدينة مكان قبور شهدائها ـــ وليس في روما وحدها كان هذا النظام ـــ أي وجود قبور الشهداء حول سور المدينة من الخارج و بالتالي قيام الكنائس الخاصة بشهدائها، بل وأيضاً في معظم المدن الكبرى كأنطاكية ـــ كما يحدثنا القديس يوحنا ذهبي الفم ـــ حيث يصف الكنائس الخاصة بالشهداء الكائنة حول سور المدينة من الخارج بحلقة من القلاع حول المدينة: [وإنها لنعمة من الله أن تكون مدينتنا محصنة بأجساد القديسين الكريمة].

وهذا الوصف يكشف لنا عن موضع كنائس الشهداء من المدينة، إذ لم يكن قد سُمح بعد بنقل أجساد الشهداء إلى داخل المدينة في كنائس جديدة غير قبورهم الأولى، لأنه لم يكن مسموحاً قط بمقتضى القانون الروماني أن تنقل أجساد الموتى من خارج المدينة إلى داخلها. (٧)

ويمدنا الكرونوجراف (التقويم) الروماني لسنة ٣٥٤م بقائمة أسماء الأعياد الرسمية في

(7) Ibid., p. 178.

الكنيسة الرومانية وعددهم ٢٤ . وتحت أسم Depositis Martyrium ، يذكر ٢٢ من أسماء الشهداء الذين كانت تعيد لهم الكنيسة كلٌ في قبره خارج المدينة في أحد السراديب المخصصة لذلك.

وقد ابتُدىء في روما منذ منتصف القرن الرابع بإقامة التذكار بواسطة الإفخارستيا ، وهذا يدلنا عليه قول لترتليانوس في هذا الموضوع (٨) على أن القداس كان يسبقه حتماً سهرة حيث تقرأ من الكتب المقدسة ما يناسب الذكرى ، ثم سيرة الشهيد يتخللها صلوات قصيرة أو لحن قصير. و يذكر هذه السهرات القديس چيروم و يتحمس لها . (٩)

وفي مضابط أحد المجامع المسمى «ألفيرا» في أسبانيا سنة ٣٠٥م تنص إحدى الفقرات على تنظيم السهر في أعياد الشهداء ، وتشدد على منع السيدات من حضور تلك السهرات خارج المدينة في قبور الشهداء . (١٠)

والذي يهمنا في هذا الموضوع هو إقامة التذكار للشهداء بواسطة تقديم الذبيحة المقدسة أي الإفخارستيا . وفي هذا معنى التكريم واضح غاية الوضوح ، لأن إقامة القداس وإصعاد الذبيحة المقدسة في مقبرة شهيد ترفع المقبرة إلى مستوى كنيسة وترفع موت الشهيد إلى مستوى عيد للقيامة ، لأن القداس هو في مجمله عيد للقيامة!!

وهكذا نجد أن تكريم الكنيسة للشهداء بدأ في القرن الرابع ــ وفي الغرب بالذات ــ يتعدى معنى التذكار بالصلوات والتسابيح إلى أعظم ما يمكن أن تقدمه الكنيسة من أعمال أو خدمة وهو القداس الإلهي . وفي هذا تكريم أقصى تكريم لا للشهيد في حد ذاته بل للشهادة في مضمونها الإيماني .

و بينما تقتصر الكنائس في الشرق على تقديم ما يناسب شهادة الشهيد من قراءات

(8) De Cor., C. 3.
(9) Cont. Vig., C. 9.
(10) C. 35, Mansi 2, 11.

وألحان وتسابيح فقط ، حيث يبقى نص القداس لا يتغير قط في أي جزء من أجزائه ، نجد أن في كنائس الغرب ـــ و بالأخص روما ـــ أخذ تذكار الشهيد يؤثر على نص القداس تأثيراً شاملاً حتى في الصلوات الرئيسية كالمقدمة ، كأن يقول الكاهن في صلاة الشكر الكبرى :

[لأن هؤلاء قد اعترفوا بالإسم الذي به وحده قد تعين الخلاص لنا ، ولكي يتسنى لنا نحن أيضاً الإعتراف به قد أقت شهادة هؤلاء لتعين ضعف إيماننا وتقويه بشفاعتهم .](11)

ومثل هذه الإضافات كثيرة وفي مواضع عديدة من القداس الروماني حيث يستمر يقارن بين غلبة المسيح ـــ بصفته رأس الجسد ـــ على الشيطان و بين غلبة الشهداء على الشيطان بصفتهم أعضاء تستمد النصرة من الرأس . حيث يستند مؤلف القداس على قول بولس الرسول لتيموثاوس : «جاهد جهاد الإيمان الحسن وأمسك بالحياة الأبدية التي إليها دعيت أيضاً **واعترفت الإعتراف الحسن أمام شهود كثيرين .** أوصيك أمام الله الذي يحيي الكل **والمسيح يسوع الذي شهد لدى بيلاطس البنطي بالإعتراف الحسن...»** (١تى٦: ١٢و١٣)

ولكن هذا التوازي السري بين الشهادة التي أكملها المسيح بسفك دمه والشهادة التي أكملها الشهداء بسفك دمائهم ، قديمة في الكنيسة ، ونقرأها بوضوح في صلاة بوليكاربوس الشهيد في لحظة آستشهاده : [أيها الرب الإله القادر على كل شيء... أباركك لأنك رأيت أن تنعم عليَّ في هذا اليوم وفي هذه الساعة **أن أشارك** مع عداد شهدائك ـــ **في كأس مسيحك** ، وأعبر إلى الحياة الأبدية...] .

ولكن لم يكتف القداس الروماني بذكر الشهداء العام في صميم صلاة الشكر الكبرى بل تعداها حتى إلى ذكر أسماء الشهداء في قانون الإفخارستيا ذاته ، وذلك في

(11) Muratori 1, 304f.

خلال القرنين الخامس والسادس.

أما فيما يختص بكنيستنا القبطية الأرثوذكسية فقد حددت منذ أيام كيرلس الكبير موضع ذكر أسماء الشهداء والمعترفين والقديسين في المجمع Dyptichs الذي ينتهي بذكر جميع الباباوات الذين اعتلوا الكرسي المرقسي وتنيحوا.

أما أول ذكر لأعياد الشهداء وترتيب طقس تكريمهم في الكنيسة القبطية فنقرأه بغاية الدقة والتفصيل في قوانين القديس أثناسيوس الرسولي هكذا:

[القانون **الحادي والتسعون**: من أجل أعياد الشهداء ليكونوا هم أيضاً باحتفاظ عظيم وترتيب عظيم يعملون لهم اجتماعات Synaxi و يقيمون الليل كله ساهرين في التزمير والصلوات والقراءة الطاهرة.

القانون **الثاني والتسعون**: ولا يمضي أحد من الرهبان أو الراهبات إلى أحد المرتيريون(١٢) أي مواضع الشهداء بل كل دير للعذارى تقيم راهباته ليلة الشهداء في ديرهن، فهو مثل اجتماعهن في موضع الشهداء وتصلين حتى يحين وقت القربان، ينذروهن (أي يرسل الكاهن رسولاً من قبله لهن) فيأتين إلى البيعة «**قبل قراءة المزمور**»...](١٣)

ومن هذين القانونين يتبرهن لنا بغاية اليقين أن في أيام القديس أثناسيوس الرسولي (٢٩٥ — ٣٧٣م)، كان طقس تكريم الشهداء بأعياد ثابتة قائماً في الكنيسة بمقتضى تقويم ثابت، حيث بقي تكريمهم محدوداً في حدود «المرتير يوم» أي الهياكل المخصصة خارج المدينة على قبور الشهداء، وليس داخل المدينة في «الكاثيدرال».

وإن طقس الخدمة كان له نظام، أو كما يقول القديس أثناسيوس «**بترتيب**

---

(١٢) سبق أن قلنا أن المرتير يون هو هيكل صغير أو سرداب تحت الأرض أو ساحة صغيرة فوق قبر الشهيد قبل أن يبدأ عصر بناء الكنائس الكبيرة في موضع قبور الشهداء.

(١٣) مخطوطة «النومو كانون»، المكتبة الأهلية بپاريس.

عـظيم »» ، وليس فيه شيء من المجون أو الإنحلال «« ليكونوا بتحفظ عظيم »» ، وأن قداس الصباح يسبقه سهر ليلي بطول الليل مقسم على القراءات من الكتب المقدسة «« القراءة الطاهرة »» وعلى تسبيح المزامير والصلوات. أما القداس فيأتي كختام للتسابيح كأعظم ما تقدمه الكنيسة لأولادها في عيد الشهيد.

كما يلاحظ التحذير الذي يقطع به البابا أثناسيوس على الرهبان والراهبات أن لا يغادروا أديرتهم للذهاب إلى المرتيريون أثناء السهر، بل يصرح لهم بحضور القداس في الصباح فقط. فإن هذا التحذير يعني أنه لم يكن يقام لا في أديرة الرهبان ولا في أديرة الراهبات أعياد للشهداء حتى هذا التاريخ، نظراً لعدم وجود أجساد للشهداء بها، لأن إلى زمان أثناسيوس الرسولي لم تكن أجساد الشهداء قد تصرح بنقلها إلى كنائس المدن أو الكاتدرائيات أو الأديرة.

كما يلاحظ أن المرتيريون الذي هو موضع الشهداء سماه البابا «« البيعة »» : [فيأتين إلى البيعة قبل قراءة المزمور]. وهذا يكشف لنا عن مدى الكرامة التي أعطتها الكنيسة للشهداء، إذ جعلت مواضع قبورهم على مستوى الكنيسة.

ومعروف جيداً أن طقس السهر الليلي الذي ينتهي بقداس الصباح ــ وكاسيان يشهد بذلك ــ طقس قبطي صميم انتقل إلى الغرب، وبالأخص إلى روما أيام أثناسيوس الرسولي. كما أننا لا نشك أن كل ترتيب السهر ومعاني التكريم وفكرة إقامة الإفخارستيا في أعياد الشهداء هو بالأساس من ترتيب بابوات الإسكندرية.

ولائم الأغابي في عيد الشهداء
وتحوُّلها إلى الموالد

وليمة المحبة أي «الأغابي» ، وتسمى عند الغرب **Refrigerium** كانت في الأصل جزءاً لا يتجزأ من الإفخارستيا لا يحضرها إلا المعمَّدون . وكانت تقام في العصور المبكرة جداً قبل الإفخارستيا بحسب ترتيب الطقس اليهودي ، وعلى نمط عشاء الرب : «وكذلك الكأس أيضاً **بعد العشاء** قائلاً هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي الذي يُسفك عنكم .» (لو٢٢ : ٢٠)

ولكن سرعان ما أخذ سر الإفخارستيا وضعه المكرم ، فجاءت الإفخارستيا قبل الأغابي . وظلت الأغابي تسمى «**وليمة عشاء الرب**» وتمارس في كل مصر ، وخصوصاً في الصعيد حتى أوائل القرن الخامس .

ولكن بسبب انحلال بعض المؤمنين واستخدامهم الخمر الكثير في هذه الوليمة ، جزعت منها الكنيسة وبدأت تهملها كطقس رسمي ملازم للإفخارستيا ، واكتفت الكنيسة بإقامتها في مناسبات محددة هي : عند رسامة الأسقف ، وعند تعميد المؤمن الجديد ، وفي أعياد الشهداء مولد الشهيد (أي يوم آستشهاده) ، وفي تكريس الكنائس ، وعند إقامة إكليل للزواج ، وفي المآتم .

وكان من صميم طقس الأغابي أن لا تقام إلا بأمر الأسقف وبحضوره ، ثم بدأ ينيب عنه كاهنه . وكانت تقام في العصور المبكرة جداً داخل الكنيسة أو المارتيريون ، ثم حرمت الكنيسة إقامتها داخل الكنائس في عصر متأخر في مجمع لاوديكيا والمجمع الثالث بقرطاجنة سنة ٣٩١م ، الذي فيه حتمت الكنيسة الصوم قبل التناول .

وكانت الأغابي التي تقام للشهداء ذات صبغة كنسية طقسية وذات هيبة ووقار ،

وكان الأسقف أو من ينوب عنه من القسوس يصلي على كأس خمر يذوق منه الجميع، و يصلي على خبزة و يكسر منها و يعطي للجميع، و بعد ذلك يبدأ الأكل. وكان يقام في نهاية الوليمة تسبحة وصلاة ختامية للإنصراف.

أما القيمة الروحية من الأغابي فكانت عظيمة لأنها كانت واسطة تربط الجميع بالمحبة، لأن الأكل على المائدة الواحدة في جو من الفرح وفي حضرة الكنيسة و بالصلاة له تأثير كبير في رفع الفوارق وضم القلوب وانفتاح النفوس بعضها لبعض.

وقد حرصت الكنيسة في البداية على إقامة وليمة عشاء الرب في أعياد الشهداء تكريماً منها للشهيد ولربط المؤمنين معاً في جو المحبة والألفة الروحانية بماضي آبائهم وتراث كنيستهم الروحي، لكي تستمد الأجيال الصاعدة من شجاعة وإيمان آبائهم الأماجد. ولكن سرعان ما تبنّى هذه الولائم أغنياء المؤمنين سواء في بيوتهم أو في القاعات الملحقة بالكنائس.

وإليك أيها القارىء نص القانون الكنسي الوارد في قوانين الرسل لهيبوليتس الخاص بإقامة الأغابي المسمى بالأنامنيسيس أي تذكار لشهيد من الشهداء ἀνάμνησις :

القانون الثالث والثلاثون:

[لأجل الأنامنيسيس (تذكار) يصنعوه عن الذين ماتوا (شهيد أو غيره):

لا يكون ذلك يوم الأحد! (طبعاً لأن يوم الأحد خدمة مخصصة للرب فقط).

وإن كانت أنامنيسيس يصنعوها عن الذين ماتوا، **ينالون أولاً من الأسرار من قبل أن يجلسوا.** ولا يجلس معهم أحد من الموعوظين في ولائم الكير ياكن (أي وليمة الرب ذات الصبغة الكنسية) و يأكلوا و يشربوا بكفاف وليس بسكر بل بسكينة لمجد الله. ولا يتكلم أحد كثيراً، ولا يصيح وقت دخول القديسين إلى منزل المؤمن (الداعي إلى الوليمة)، لئلا يهزأ بكم، ولئلا تكونوا عثرة للناس، فيشتم من دعاكم لأجل أنكم على غير طقس، بل ينبغي أن تكون مثل هذه الوليمة لثبات الداعي وكل بيته و يرى عفاف كل واحد منا و ينال تكريماً عظيماً بالمثال

الذي يراه علينا، و يصلي أن يدخل القسيس تحت سقفه لأن مخلصنا يقول: «أنتم ملح الأرض».

فإذا ابتدأ الأسقف يتكلم (على المائدة) وهو جالس، لينصت الجميع، لكي يربحوا به.

فإن كان الأسقف ليس حاضراً والقسيس حاضر فليلتفتوا إليه كلهم، فإنه أرفع منهم بالله، و يكرموه الكرامة التي يكرَّم بها الأسقف، ولا يجسروا أن يقاوموه.

فإذا كان الشماس هو الحاضر في الوليمة وليس القسيس، يكون عوضاً عنه في الصلاة وكسر الخبز للبركة، يكسر الخبز و يدفعه للمؤمنين. أما العلماني فلا يدفع له أن يرشم الخبز بل يكسره لا غير].

القانون الثاني والثلاثون:

[فإذا كان الأسقف حاضراً... يصلي الأسقف عليهم وعلى الذي دعاهم (صاحب الدعوة) يصلي الأوخارستية التي في أول القداس وهي:

الرب مع جميعكم ـــ يرد الحاضرون: ومع روحك أيضاً.

يقول الأسقف: ارفعوا قلوبكم ـــ يرد الشعب: هي عند الرب.

يقول الأسقف: اشكروا الرب ـــ يرد الشعب: مستحق وعادل.

يصرفهم بعد الأكل ليتفرقوا قبل أن يكون الظلام و يصنعوا مزامير (تسبحة) قبل انصرافهم].

وهكذا يتضح أن وليمة الأنامنيسيس ـــ أي التذكار للشهداء ـــ كانت وليمة كنسية بالدرجة الأولى. فهي تبدأ بليتورجية كنسية حيث يدعو الأسقف للصلاة، ثم يطلب حضور الرب، ثم يأمر برفع القلب، ثم يصلي الشكر على المائدة مثل بداية القداس تماماً؛ لأن هذا حتم بسبب اجتماع المؤمنين رسمياً في حضرة الرب وعلى رأسهم أسقف الكنيسة.

كما يلاحظ أن الإجتماع ينتهي بتسبيح المزامير، أي بليتورجية كنسية، كما أنهى الرب العشاء السري يوم الخميس مع تلاميذه «فسبحوا وخرجوا إلى جبل الز يتون». وهنا كلمة «خرجوا» هي التي تسمى في الكنيسة الآن بالإنصراف وأسمها الكنسي الطقسي missa ولها منطوق صلاة للبركة محدد لا ينبغي أن يخرج الكاهن عن حدوده: «**امضوا بسلام، سلام الرب مع جميعكم**». يقولها الأسقف أو الكاهن في الأغابي كما في القداس، لأن الإجتماع في الإ ثنين محسوب أنه قائم رسمياً أمام الرب وفي حضرته، فلا يجرؤ أحد أن يغادر الإجتماع إلا بعد «أمر» الإنصراف.

ومن هذا ندرك أن الكنيسة أعطت في طقسها منذ البدء مكاناً لتكريم ذكرى الشهداء بالأغابي المسمّاه خاصة هنا باسم «الأنامنيسيس» أي التذكار، هذا بالإضافة إلى إقامة الذبيحة المقدسة التي تسبقها خاصة باسم الشهيد.

والملاحظ أن ولية الأغابي الخاصة بتذكار الشهداء يُقدَّر قدمها في مصر منذ القرن الثاني، لأننا نقرأ عنها في كتابات اكلمندس الإسكندري بغاية العناية والوضوح (سنة ١٥٣—٢١٧م)، إلا أنها انتشرت في الغرب بعد ذلك التاريخ بكثير، و يسميها الغرب Refrigerium وقد تطورت هناك بسرعة فصارت حفلات ماجنة، سرعان ما انبرى لها الأساقفة لمقاومتها. وكان القديس أغسطينوس أول من هاجمها في شمال أفر يقيا بسبب الحفلات الصاخبة التي كان يقيمها الشعب في باز يليكا قرطاجنة المسماة على أسم القديس كبر يانوس، بل وحتى في مقر كرسيه في هيبوحيث كانت تقام هذه الحفلات تذكاراً للشهيد لونديوس أسقف هيبو السابق.

وقد نجح أغسطينوس في إيقاف هذه الولائم نهائياً في شمال أفر يقيا بمقتضى مجمع أقامه في هيبو سنة ٣٩٣م. وقد نصح أغسطينوس شعبه أن يوزع هذه الأطعمة على الفقراء في المقابر بدل أن يتناولها الأغنياء والمقتدرون. و بذلك أنهى أغسطينوس على طقس ولية الأغابي التذكار ية في مفهومها السري الرائع «كعشاء الرب»، الذي كان يجمع و يوحد بين الشعب وأرواح شهدائه، إلى مجرد حسنات للفقراء، وذلك بسبب عجز الكنيسة عن

ضبط هذا الطقس والإشراف الفعلي عليه .

وفي الختام، إذ نقدم هذه الكلمات عن مدى اهتمام الكنيسة بتكريم شهدائها الذين أحبوا المسيح ولم يحبوا حياتهم حتى الموت، نتوسل إلى أرواحهم الطاهرة الماثلة أمامنا والحاضرة معنا في كل صلواتنا أن تؤازرنا في جهادنا بدالة ربنا يسوع المسيح، حتى يهتم كل راهب منا بخلاص نفسه و ينجو من فخاخ الشيطان المنصوبة حوله، و يكمل سعيه ويحفظ إيمانه و يلبس إكليله، و يعبر برحمة ربنا يسوع المسيح كما عبروا !!



يُطلب هذا الكتاب
(وباقي كتابات الأب متى المسكين)
مـن:
دار مجلة مرقس
القاهرة: ٥٠ «أ» شارع شبرا ـــ شقة ٤ ـــ تليفون ٧٧٠٦١٤
الإسكندرية: ٣٤٤ طريق الجيش ـــ جليم
(وكافة المكتبات المسيحية)



القديس بطرس الرسول
عن أيقونات دير الشهداء بإسنا (من أديرة أنبا باخوميوس)

صفوف الشهداء والشهيدات حاملين أكاليلهم
عن لوحة بالموزاييك من كنيسة القديس أبولينار ـ رافينا ـ القرن الرابع

